سهى قاسم

رواية

مشاعر مخذوفة من النَص

www.idafabooks.com

مشاعر محذوفة من النَص

هل جربت ان تستيقظ فجأة واجدا نفسك لا تعرف احدا!
عالم جديد تملؤه علامات الإستفاهم و التعجب!
روحك تألفه بدون اسباب و لا منطق محسوس! وكأن هناك عالم خلف الحجاب و المادة يدفعك للسير في هذا الدرب المجهول..
يدفعك إلى أشخاص لم يربطك بهم سوى لا شئ!
فتدرك متأخرا.. أن كل شئ يقتضي التكرار..
وكل الأحداث تعاد مرتين بلا حول ولا قوة منك لتغيير شئ!
ويظل فيض الشعور مكبل بأغلال العجز عن النطق به..
ويظل كل ما تريد قوله هو الجزء المحذوف من النص.

غلاف : أمير مصطفى

9 789776 758017

www.idafabooks.com

مشاعر محذوفة من النصَ

www.idafabooks.com

مشاعر محذوفة من النصَ
رواية
سهى قاسم
الحسناء للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى : ٢٠١٩
ISBN 978 -977-6739-01-7
رقم الإيداع : ١٣٦٠٦ / ٢٠١٩
ديوى : ٨١٣
١٦٠ ص، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية، ج . م . ع
٠١٠٠٦٤٢٢٠٦٦
٠٣/ ٥٩٣٠٥٧٦
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

www.idafabooks.com

مشـــاعر

محذوفة من النصَ

روايـة

سهى قاسم

www.idafabooks.com

www.idafabooks.com

إهداء

إلى أبي أسامة قاسم وأمي معًا لا مُتقدِّم بينهما ولا مُتأخِّرا!،
إلى رفيقة الدرب: مريم علي وفاطمة وإيمان

وإلى الملهمين: فيمون وياسمين إبراهيم ويارا ذو الفقار وسهيلة وسلمى حسنين وشروق حاتم والكاتبة إسراء سامي وسندس عبد القادر

وإلى من أطلقوا لساني في اللغة العربية الفصحى

أ/أماني مجاهد، أ/مديحة ، أ/عادل بخيت،

ثم أخيرًا وأولاً

إهداء لهذا اليوم الذي تغيَّرَت فيه نظرتي للأشياء من حولي
١٤ نوفمبر ٢٠١٦

www.idafabooks.com

www.idafabooks.com

الفصل الأول

إنه صباح غريب، اليوم الأول لي في العالم .. غرفة حوائطها ناصعة البياض والزهور في كل مكان حولي حمراء وصفراء.. لا أسمع أي أشخاص هنا الآن، فقط أنا.. وهذه النافذة البسيطة التي تحتجز الطبيعة خلف أسوارها، أشاهد منها حديقة غنّاء تسع من الطير أُلُفًا، وبالرغم من أن الشمس ساطعة في ذروتها والصباح باكر إلّا أن الجو لطيف جدًا، أجلس الآن أمام النافذة تمامًا، أومئ برأسي يسارًا ويمينًا ببطء وكأنّي في فيلم سينما والكاميرا تبتعد من خلفي في اتجاه الباب ببطء شديد.. وساد الصمت.

www.idafabooks.com

لقد بدأ كل شيء بالأمس.. تردد على غرفتي الكثير من الأشخاص الذين لا أعرفهم، كان منهم رجال شرطة وأشخاص عاديون كُثر وأطفال وكبار وشباب، ولكن الغريب أني لا أعرف أي شخص منهم!

عندما استيقظت بالأمس على أصواتهم دفعني الفضول أولاً أن أسألهم عن هويتهم! ودارت الأحاديث في نفسي هل أنا مُختَطف مثلاً! كان الفضول يقتلني.. اقتربت مني سيدة جميلة ليست بالشابة ولا العجوز الهرِمة ودمعت عيناها ولم تتفوه بكلمة ثم صرخت فجأة قائلة: " يا الله يا كريم، أخيرًا استفقت!".

ثم قال أحدهم – في زِي شرطة - "لن يمر هذا الأمر سهلاً.. إنه الشاهد الوحيد الذي لم يُدلِ بشهادته بعد، أنا على يقين أن هذا الحادِث مُدبَّر" ثم صمت برهة واستطرد قائلاً "سأدوّن ما حدث في ملف القضية، وسنتابع معكم الأمر إلى أن تستقر حالته ويستطيع أن يُدلي بأقواله".

ثم رحل على اتفاق أن يعود في اليوم التالي ليرى مدى تطور الحالة.

و لكني ما زلت في عجب! ما الذي يحدث؟.. أي حادث يقصد؟ وأي قضية؟ ولماذا أنا؟ ومن هؤلاء حولي؟

www.idafabooks.com

فاقتربت تلك السيدة بشغف ولهفة غريبة وقبلت رأسي.. ولكن من تكون هذه السيـ ...

أمي !

جحظت عيناي في تلك اللحظة وخفق قلبي سريعًا حتى كِدت أسمع دقاته في أذني! ولم أستطع أن أنطق ولم تُسعفني الكلمات! كل تساؤلات الدنيا دارت في بالي.. ظللت أُقلِّب الأنظار حولي في كل الحضور لعلي أتعرف على أي منهم كما تعرفت عليها لكن لم يحدث!

حاولت أن أهدأ قليلاً وأتمالك الكلمات..

"أمي، ماذا يجري؟! أخبريني الحقيقة أرجوكِ.. الحقيقة فقط! أين أنا؟ ومن هؤلاء؟!"

ابتعدَت للخلف فجأة واستحالت الدموع في عينيها إلى جفاف والبسمة إلى اندهاش! وصمت كل الحضور حتى هذا الذي يرتدي رداءً أبيض لا أعرف إذا ما كان طبيبًا أم ممرضًا أم ماذا! ثم قال بصوت هادئ "هذا ما كنت أخشاه"..

ازددت ضيقًا على ضيق وتملّكني الذعر! وحاولت النهوض من مكاني لكن وجدت نفسي مكبّلاً بالكثير من الأنابيب والأجهزة..

www.idafabooks.com

"أمي.. ماذا يجري بحق الله أخبريني؟!"

فقالت "لا أدري يا بُني صدقني لا أدري..!"

فاقترب مني هذا الذي أظنه الطبيب وجلس جواري بنفس الهدوء المستفز قائلاً:

"ما اسمك؟"

فأجبته: "إياد أحمد عزّام"

فقال: "ما اسم والدتك؟"

صمتُ لبرهة وقلت: "نهال طارق"

قال: "كم أخًا لديك؟"

قلت: "إخوة؟؟ ليس لدي!"

فنظرتُ إلى أمي وجدتها تقلّب نظرها بيني وبين الطبيب في صمت!

ثم قال لها الطبيب: "ما رأيك يا أم إياد في هذا؟"

قالت: "نعم، ليس لديه إخوة ولا أخوات.. إياد ابني الوحيد إنه يدرس في كلية الـ."

www.idafabooks.com

قاطعها الطبيب سريعًا:

" لا تعطيه أي معلومات سيدتي، فقط اتركيني أسأله ويجيبني"

ثم استطرد الطبيب أسئلته إليّ:

"من الواضح أنّك طالب جامعي، إذًا أخبرني في أي جامعة تدرس؟"

في الحقيقة لم أعطِ أي تعبير حتى على وجهي! فقط كنت أفكر! جامعة! أي جامعة؟! كم عمري؟!

فأجبت الطبيب: "في أي عام نحن؟"

فسأل الطبيب مجددًا: "في أي جامعة تدرس؟"

فأجبته أنّي لا أدري عن ماذا يتحدث!

لم تكن نظرات أمي بالهيّنة ولم أكن أتمنى أن أضعها في هذا الموقف أبدًا ولكن ما باليد حيلة!

ثم قال الطبيب:

"حدثني عن نفسك يا إياد"

www.idafabooks.com

قلت له: "حسنًا، أنا إياد عزّام، أعزب، أحب الكيمياء كثيرًا وأشعر أنّي ربما أُبدِعُ يومًا في هذا المكان، أحب كل أنواع الطعام إلّا الأسماك فهي عدوي الأول، أحب الفاكهة وأنا عاشق للمأكولات السريعة.."

فتابع كلامه: "حدثني عن آخر نشاطاتك وإنجازاتك"

شعرت في هذه اللحظة أنّي أنتشل جثة بخيط في سفح جبل أنا على قمته.. لا أنا أقدر أن أرفعها ولا هناك أمل أن تعود للحياة إذا رفعتها.. أراها ولا أستطيع إليها سبيلاً..!

فقلت له: "أنا أعلم أن هناك نشاطًا وإنجازًا أنا أشعر به! أشعر بشغف وعلى يقين قاطع أن هناك نجاح حققته لكن.. لكن.. لا أعرف.."

مكثنا على هذا الحال طوال الليل أنا والطبيب نحاول نبش الذاكرة واستخراج المعلومات مني فقط بدون أي إدلاء بأي معلومة منه، وفي هذه الأثناء كان الأشخاص الموجودون في الغرفة ينسحبون واحدًا تلو الآخر منهم من رحل تاركًا السلام ومنهم من ترك الدعاء ومنهم من رحل في الخفاء كي لا نلاحظه لكني لاحظت! وكان واضحًا جليًا مكانتي عند كل منهم.. فبعدما عرفوا أني لا أتذكرهم رحل بعضهم فورًا وكأن ذاتي لا تعنيهم في شيء، وكأنهم جاءوا لزيارتي تودّدًا إلي،

www.idafabooks.com

ربما كنت أمسك عليهم مذَّلة مثلاً أو أترأسهم في فريق أو عمل أو عليهم ديون لي، لا أدري.. ثم ظهرت الحقيقة في المدة التي بقيها كل شخص منهم يستمع إلى آلامي أسردها للطبيب.

فكان أول المغادرين فتاتين في مقتبل العشرينات أحسبهما على قدر من الجمال ليس بهيّن، سمعت في تهامسهما اسم هالة، ثم غادر شاب أيضًا من سنّهم ثم بقي ثلاثة شباب لمدة ساعتين وغادروا وتركوا ظرفًا به مبلغ مالي على ما أظن، ثم غادر رجل كبير وبقي في الغرفة أربعة؛ أنا والطبيب وأمي وشاب لم يتحدث إطلاقًا منذ بداية الجلسة! ولكن الغريب جدًا أنه كان يرتدي ملابس أكثر تواضعًا من أن يخرج بها من منزله! أو ربما كان على عجلة من أمره حين خروجه من المنزل!

كان الطبيب يتردد على الغرفة بعد مباشرة عمله في الغرف الأخرى طوال المساء، وقبل نهاية اليوم بعدة ساعات بدأ معي حديثًا بشكل مختلف.. فقد استأذن من أمي أن تجلس على الأقل نصف ساعة تحدثني عن نفسي في الفترة الأخيرة على أن يجلس هو يشاهد تعابير وجهي ومدى استجابتي لما ستقوله..

وبالفعل فعلت أمي ما طلب منها الطبيب وأخبرتني أنه منذ أربعة أعوام نجحت في الثانوية والتحقت بكلية الصيدلة جامعة الإسكندرية واستطعت أن أثبت نفسي فيها على مدار الأعوام

www.idafabooks.com

الماضية بجدارة حتى صرت من المقرّبين لهيئة التدريس، وتتوقع أمي أن أكون معيدًا بها! ثم بدأت تخبرني عن مغامراتي العاطفية في الجامعة وتصف لي الفتاة ذات العيون الزرقاء التي – على حسب قولها – كنت مغرمًا بها! ثم استكملت كلامها عن فتيات أخريات يحاولن التودد إليّ بشتى الطرق، كما أنها لم تكف عن إخباري كم أنا وسيم وشديد الأناقة والهدوء والغموض وأنّي شديد البرود ولا أعبأ همًا للمشاعر أبدًا حتى بكت في كلامها عن تلك الفتاة ذات العيون الزرقاء كأنها تقول لي "لقد سرقتك مني" أو "لقد أظهرت لها حبًا لم تظهره لي برغم أنّي أحببتك أولاً!"

شعرت بالأسف الشديد على ما قالت وربما ضاق صدري لإحساسي أنّي كنت شخصًا مغرورًا! أو ربما جاحد! أو ابن عاق! أو ربما كنت جادًا طوال حياتي حتى ظن العالم أني لا أشعر! لا أعلم.. كما لا أعلم لماذا كانت في كل مرة تقول "الفتاة ذات العيون الزرقاء" ولا تخبرني عن اسمها!

حسنًا برغم كل المحاولات التي فعلَتها هي والطبيب في إعطائي جرعة كبيرة من المعلومات عن نفسي إلّا أن جميعها باءت بالفشل.. فأنا لم أتذكر لا الفتاة ولا الجامعة ولا حتى أتذكر الثانوية ولا أتذكر عن أمي شيئًا سوى اسمها والقليل من التفاصيل..

www.idafabooks.com

ولكن الطبيب كان على إصرار! ودعا هذا الشاب المريب الذي يجلس من الصباح ليعرّف نفسه علي ويجلس معي حتى أنام يحدثني عن حياتي الجامعية وعن أصدقائي وعن الحادث!

فجلس هذا الشاب أمامي تمامًا.. وما إن بدأ يتحدث حتى بدأت أشعر بشيء غريب، خليط من صداع الرأس وخفق القلب وكأن صوته مر بصدري لا بأذني!

شعرت أن هذا الصوت ربما يكون مألوفًا، إنها ليست المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الصوت!

فقلت له: "أشعر أنّك كنت مقرّبًا لي، صوتك مألوف كصوت أمي، حدّثني عنك!"

فابتسم ابتسامة مكسورة ونظر في الأرض وقال: "لم أكن أتمنى أن أكون في هذا الموقف! لم أكن أتمنى أن أراك في هذه الحال، لم أكن أتمنى يا صديقي ورفيق دربي.."

أثّرت كلماته في نفسي كثيرًا وقلت له: "أرجوك لا تبخل عليّ بشيء، أخبرني كل شيء"

فتابَع..

www.idafabooks.com

"أنا وائل صبحي، نحن أصدقاء منذ كنا أطفالا وشاء الله أن نظل أصدقاء وزملاء حتّى الجامعة، جمعتني بك الكثير من الذكريات، هل تتذكر هذا اليوم الذي انتقلنا فيه من منزلنا الذي كان بجواركم في كيلوباترا إلى سيدي بشر؟! هل تتذكر بهي الدين صديقنا من الجامعة؟ لقد كنتم دائمًا تناكفون بعضكم البعض! هل تتذكر شيماء وهالة؟ أعتقد أن هالة كانت معجبة بك ولكنك لم تعطِها اهتمامًا"

قاطعته: "وائل، أرجوك لا تكمل.. أنا لا أتذكر شيئًا! أنا لا أتذكرك أنت شخصيًا!"

شعرت أن ما قلت جرحه كثيرًا! خاصةً أنه يجلس منذ ساعات وساعات لم يتفوه بكلمة فقد كان جالسًا ليطمئن على حالتي! اعتذرت له على الفور وطلبت من الطبيب أن يفك عنّي الأجهزة، وبمجرد أن فصلها قمت من سريري سريعًا واحتضنت وائل معتذرًا له!

استحال الاعتذار إلى دهشة! وكأن خيوط الزمن تشابكت في هذه اللحظة!

"وائل!!! هذا أنت!"

www.idafabooks.com

دمعت عيناي وابتعدت عنه سريعًا ونظرت إليه ويدي اليمنى على كتفه وقلت له: "كنت أعلم أني لن أنساك!"

ذُهِل الطبيب وأمر بفض المجلس وأن يبتعد وائل وأمي وجلس الطبيب أمامي وهو ينظر إليّ بشكل مخيف لا يدير عينيه عني! وكأنه وجد ضالته مثلاً أو حل لغز الجريمة!

قائلاً: "الآن فهمت!"

فقلت له في نبرة استهزاء: "فهمت ماذا؟؟"

فقال لي: "يا عزيزي أنت لم تفقد الذاكرة! أنت تعرف كل شيء لكن تحتاج للتنشيط!"

فقالت أمي للطبيب: "زِد شرحًا من فضلك!"

فقال الطبيب: "أن إياد بمجرد أن استفاق لم يتذكرك وكل ما قصصته له لم يتذكره وكل ما قصه وائل لم يتذكره أيضًا! لكنه تذكرك على الفور عندما طبعتِ قبلتك على جبينه! وتذكر وائل على الفور عندما قام من مكانه واحتضن صديق عمره! لقد فك إياد اللغز بذاته! إن إياد لا يحتاج لاسترجاع ذاكرة! بل إلى استرجاع عاطفة.."

في الحقيقة شعرت أن ما قاله الطبيب أشبه بالمعضلة!

www.idafabooks.com

صمت الجميع لدقائق نحاول فهم الأمر..

ثم قفزت فجأة من مكاني قائلاً: "ما أمر الجريمة؟"

فقال لي الطبيب: "اهدأ.. سيخبرك صديقك بكل شيء"

فجلست أمي بالقرب منّا وخرج الطبيب فسألت وائل: "عِدني أنك ستخبرني الحقيقة".

فقال وائل: "حسنًا.. سأخبرك بكل شيء"

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

"ما تم تحريره في محضر القضية هو ما يمكنني أن أقوله، فلم أكن معكم وقت حدوث الجريمة، وقد تم تدوين التالي؛ إنه في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا يوم ٢٠ مارس ٢٠١٩ حرر السيد حميدة بيومي حارس العقار محضرًا بخصوص وجود جثة الدكتور بهي الدين فهمي في شقته، وقد سافر والداه قبل الحادث بيومين، وذلك في الطابق السابع عمارة كذا بالأزاريطة، وبعد تحليل الطب الشرعي تم إثبات وفاة المجني عليه متأثرًا بسم الريسين بعد تعرضه له بشكل مباشر مما أدى إلى حالة تسممية حادة دامت لعدة ساعات ثم وفاته، وبعد رصد كل تحركاته خلال الثلاثة أيام قبل الحادث تم التعرف على ثلاثة شباب ترددوا على منزل الدكتور بهي الدين حيث زاره كل من المهندس وليد أحمد رداد والمهندس زين الدين محمود والدكتور إياد أحمد عزّام، وذلك حيث بدأت الزيارة في تمام السادسة مساءً يوم١٩ مارس ٢٠١٩ ، يتم استجواب كل من الثلاثة وليد وزين الدين وإياد للإدلاء بشهادتهم حول الحادث"

ثم تابع وائل كلامه: " قد أدلى كل من وليد وزين الدين بشهادتهما أن لا أحد منهما شاهَدَ أي تصرفات غريبة من صديقهما المتوفى قبل الحادث، بل وقالوا أيضًا إنه كان يلعب معهما ألعاب فيديو وعدة ماتشات كرة قدم وعدم وجود مشاكل بينه وبينهما الفترة الماضية برغم غروره وحبه للسيطرة والتملّك وقلة شعبيته،

www.idafabooks.com

لكنهما صديقاه منذ زمن ويعرفانه كما يعرفان أنفسهما، ولكن ظلّت دائرة الشك حول وليد تدور ولم يتم إثبات براءته خصوصًا بعد تلعثم زين الدين في إدلاء شهادته عن وليد، والذي ربما يكون ارتباكًا وربما يكون فشلاً منه في محاولته التغطية والتستّر على وليد، فتم وضع وليد تحت المراقبة لحين إدلائك بشهادتك حول هذه الليلة، كما صرّح زين الدين في استجواب خاص بأنه لم يتحرك من مكانه في تلك الليلة أصلاً إلّا حين قام للمغادرة فكيف يسم بهي! كما أكّد على كلامه وليد عندما كان في الاستجواب الفردي أيضًا أنه لم يتحرك فعلاً فتم إثبات براءة زين الدين! لكن يظل في قضية محاولة التستر على قاتل إذا كان وليد مذنبًا..

لم يتبقّ سوى شهادتك حول وليد هي الوحيدة القادرة على قلب الموازين! فإجابتك قد تلف حبل المشنقة حول رقبته إذا كان هو القاتل.. عمومًا ما زالت المباحث تجري إجراءاتها على أكمل وجه لمحاولة تتبع تحركات وليد في الفترة الأخيرة.."

أقسم إن كلام وائل وقع عليّ كالصاعقة، أنا شخص لا يتذكر أي شيء كيف سأتذكر تفصيلة صغيرة مثل هذه؟! كيف سأتذكر ماذا فعلنا هذه الليلة بالتفصيل الممل حتى أثبت براءة أو إدانة وليد؟! من وليد أصلاً؟!

www.idafabooks.com

سألت وائل أن يخبرني كيف أتيت إلى هنا فقال لي: "في نفس اليوم الذي كنت ذاهبًا فيه للإدلاء بشهادتك وقبل ذلك بعدة ساعات تعرضت لحادث سيارة كاد يودي بك ويمكنك أن ترى ذلك بسهولة في كم الكدمات التي بجسدك! ولتعلم أن الشرطة على شك بأن القاتل الحقيقي لبهي الدين دبّر كل هذا لإطاحتك، يبدو أن لديك دليلا جنائيًا مهمًا يا صديقي، فقد كنت محظوظًا جدًا في النجاة من هذا الحادث".

شعرت بالصدمة والألم والضيق وغصة في عنقي! عدت سريعًا إلى سريري وطلبت استدعاء الطبيب سائلاً إياه أن يُنهي هذا الأمر ويعطيني منوّمًا كي أستطيع أن أغفو بعد جرعة الألم الموجعة هذه.

فكانت آخر كلمات الطبيب لأمي: "سنحاول بالقدر الذي نستطيع أن تعود المياه لمجراها لا داعي للقلق، سنعد خطة علاجية بسيطة بإذن الله تجدي النفع، نحاول فيها بالقدر الممكن أن نعيد لإياد المشاعر التي عاشها بالتدريج من الأقدم للأحدث، فقد لاحظت أنه يتذكر حبه بعض المأكولات والبعض لا! وذلك لأن هذه الأشياء عالقة في الذاكرة البعيدة ومرتبطة بالعواطف إلى حد كبير من كره وحب، كما أنه تذكر أمه من قبلة وتذكر صديقه من عناق، ذكّروه بحياته بالتدريج ولكن لا تخبروه بالتفاصيل المملة فهذا لن يساعده، كالطفل تمامًا إذا ساعدته في كل مرة يحاول القيام فيها وأقمته لن يستطيع أن يقف وحده أبدًا"

www.idafabooks.com

ثم وضع الدواء في جسدي وغفوت وانتهى اليوم..

استيقظت اليوم على صوت عصفورين أمام نافذة غرفتي، لم أجد أمي ولا وائل ولا الطبيب ولا أحد.. ربما تركوني كي أرتاح قليلاً، فَها أنا وحدي أشاهد العالم من خلف هذه النافذة لا أتذكر منه شيئًا..

أنظُرُ إلى هذه الخضرة بالخارج وإلى هذه العصافير الطليقة..

في بعض الأحيان قد يتمنى الإنسان لو كان عصفورًا، ربما يكون مرتاحًا! يستيقظ من النوم مع بزوغ الفجر يغرِّد ويغني ولا يعبأ همًّا، عقله الصغير لا ينشغل بقسوة العالم، يثق تمام الثقة في الله وأن رزقه بيد خالقه..

تذكّرت حينما كنت صغيرًا عندما كانت تخبرني أمي أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَوْ أنكم تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمُ اللَّهُ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، *تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَعُودُ بِطَانًا"*

فالطيور الحرة الطليقة البسيطة لم تلوثها الظنون بعد! هي تسعى لتحصيل الرزق فعلاً: "وأن ليسَ للإنسان إلّا ما سعى" ولكن عقولها غير الملوثة تثق في الله كما ينبغي! وإنّي على يقين أن من يثق بالله ثقة عمياء لن يخذله الله أبدًا، فاللهمَّ إنّي أشهدك أني أثق بك أنك وحدك تستطيع أن تخرجني من ما أنا فيه.

www.idafabooks.com

ها أنا، منذ أن فتحت عيناي اليوم وأنا أجلس هنا أمام هذه النافذة، لم أحرك ساكنًا ولم ألفظ لفظًا، لقد كنت أظن طوالي حياتي - التي أتذكرها - أن هذا الأمر يحدث فقط في الأفلام، أو أنه حبكة درامية لا يمكن أن تحدث واقعًا! كنت أظن وكنت أظن وخاب ظني! كم ضحكت عندما كانوا يقولون فلان فقد الذاكرة.. وكنت أقول في سري: "أترى الذاكرة علبة مخزون من الأحداث تُفقَد؟!"، كنت أضحك من أمر الزهايمر وأتساءل هل ينسى المرء أولاده مثلاً؟! ولكن ها أنا اليوم.. بين يدي رحمة الله ثم معجزة! كم هو مؤلم! كم هو مؤلم أن تشعر هذا الشعور! هل تتساءل أي شعور؟ إن شعور الحيرة مؤلم جدًا! أن تعيش أيامًا طوالا لا تدرك منها سوى أنك عشتها بالفعل.. أن يكون الفارق بين تاريخين هو مجرد حرف عطف، أن يكون ما بين ٢٠١٨ و٢٠١٩ هو (واو) مجردة! مجردة من الأحداث مجردة من التطورات مجردة من المشاعر! إنه شعور اللا انتماء! كم هو جميل أن تشعر أنك تنتمي.. أن تنتمي لشخص أو لمكان أو لمؤسسه أو حتّى لفكرة.. أما أن تكون مشتتًا لا تعلم إلى أي الحوائط تستند ليس حلاً أبدًا.. فلا بد أن تنتمي.. إن الانتماء هو تمامًا عين الحرية.. هو الأمان في الغربة والدفء بين لسعات البرد.. الانتماء هو أن تعود لموطنك كلما خذلتك الحياة وأن تهون الدنيا أمام لحظة من الانتماء الحق.. لقد خُلِق الإنسان كائنًا اجتماعيًا بالفطرة.. ولا يعني ذلك أنه يكثر من

www.idafabooks.com

العلاقات.. بل أن ينخرط في المجتمع بكل ما أوتي من مشاعره.. ولكن.. بدون تبذير.. فإهلاك المشاعر جريمة لا يحاسب عليها القانون؛ لأن القانون لا يحمي المغفلين.. وبالرغم من مشروعيتها كحق مكتسب.. تجد كل من استطاع سبيلاً أن يعيش الحب ما تردد.. بدون أي أدنى حسابات للخذلان.. فيهُلِك مشاعره ويَهلَك.. لقد ضاق بي المُتَّسع ولم أعد أدرك شيئًا.. كنت أرى في القصص أن فاقد الذاكرة يعيش حياته بطبيعية! فلماذا أنا لا أستطيع؟.. أنا لا أستطيع حتى التأقلم مع الفكرة!.. لم ألبث كثيرًا أتحدث إلى النافذة حتى فتح أحدهم باب الغرفة ووجدت أمي والطبيب يدخلان وبيدها كتاب صغير أزرق.. لا أدري لماذا تحرك قلبي عندما شاهدت هذا الكتاب بيدها.. ثم اقتربا مني وقال الطبيب: "أخبرني كيف حالك اليوم" اضطررت أن أجامل سهره معي طوال الليل قائلاً: "أشعر بتحسن، شكرًا" فقال: "حسنًا، تريد والدتك أن تخبرك شيئًا" فقلت لها: "تفضلي يا جميلتي أخبريني!" ما إن قلت ذلك حتى وجدت عينيها تدمعان مرة أخرى وظل التساؤل يدور في رأسي "هل كنت ابنًا عاقًا أم ماذا؟!" فجلسَت أمامي في هدوء وعيناها الدامعتان تحدّقان بي وعلى شفتيها ابتسامة أمل مخفية وقالت لي: "هذه هديتك" وقدّمت لي كتابًا أزرق يبدو باليًا بعض الشيء لكن يظهر عليه غلاء الثمن فسألتها: "أشعر أني رأيت هذا الكتاب من قبل، أخبريني المزيد عنه" فقالت "افتحه بنفسك، سأتركك معه

www.idafabooks.com

كثيرًا في الفترة القادمة، هذا أفضل لك" اعتراني فضول قاتل أن أرى محتواه! فعدت إلى سريري وبدأت أفتح الصفحة الأولى.. "ما هذا؟! كتاب بخط اليد! ألسنا في عصر الكمبيوتر والمطابع أم فقدت الحقبة الزمنية مع ذاكرتي أيضًا؟!" فابتسم الطبيب "نعم، أنت من كتبه"، بدأت في القراءة بدافع الفضول لا أكثر، فأنا أعلم أني لن أتذكر منه حرفًا، لكن كانت المفاجأة!

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل الثاني

وجدت صورة بداخل الكتاب من الواضح جدًا أنها لي في سن الثامنة عشرة مثلاً وبيدي ورقة واضحة جدًا.. مهلاً! هذه ليست ورقة!

شعرت بسعادة غامرة لم أدرِ سببها في هذه اللحظة! ما هذه الورقة التي في يدي في الصورة؟!

ثم بدأت أدقق النظر "إنها شهادة الثانوية".

نظرت إلى الطبيب وإلى أمي نظرة دهشة، ظللت أنظر يمينًا ويساراً بهدوء رافعًا أحد حاجبيّ! ثم عدت أقلب الصفحة في الكتاب!

www.idafabooks.com

كان هناك نص صغير مدون خلف هذه الصورة مكتوب فيه ((اليوم فقط ذقت معنى السعادة! معنى أن تنطفئ النار وينتهي الموت بالبعث! أن تصل بعدما شق عليك الطريق.. أن تقول للجميع لقد فعلتها! أن تصرخ في وجه الليالي الحالكة قائلاً "لقد تخطيتك سالمًا" أن تقول لمن تحدى القوة فيك قد غلبتكم قوّتي، اليوم فقط أنا فخور بما فعلت، اليوم عرفت معنى أن تنسى الألم رغمًا عنك ليحل محله الفخر.. أن تعبر فوق كل ما مضى من أحزان لأجل هذه الدقيقة التي ربما تغيّر مجرى الحياة، اليوم أستطيع فقط أن أقولها، هذا أنا إياد عـ ـزا"

بدأ الدم يسري في جسدي بتدفق غريب! وازدادت نبضات قلبي، وكأن جسدي يحاول أن يقاوم التغير الذي يحدث به! الذاكرة تزداد نشاطًا! قلبي يدق، جبهتي تتعرق! أنفاسي تتسارع!

❊ ❊ ❊

صوت زغاريد مرتفع!

- بُني حبيبي أبارك لك! لقد خيّبت ظنونهم البائسة وتحديت نفسك! اليوم أنا فخورة بابني! أم أقول الدكتور إياد؟

- شكرًا أماه! أردت فقط أن أثبت لكم أني أستطيع!

www.idafabooks.com

- لقد وثقت بك عزيزي من البداية! لماذا لا تصدقني أبدًا؟!

- حسنًا، بارك الله فيك.

- هيّا أغلق موقع النتيجة واتصل بخالتك أخبرها هذا الخبر السعيد.

- أمي! أنت تعلمين أنّي لا أحب كلامها السخيف!

- لا تقل هذا! فهي تحبك مثلي تمامًا.

- لا يا أمي، لا أحد يحبني! في كل مرة تُعدد إنجازات أولادها وبناتها أمامي وأنا لا أحب هذه الطريقة، كما أنها لا تحبني!

- أنت توهم نفسك! اذهب اتصل بها..

أو اجلس مكانك! سأتصل أنا.

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

- ماماااااااااااا! لقد تم قبولي بكلية الصيدلة.

- أي جامعة؟؟

- ممم، حذري أنت.

- أرجوك لا تقل لي كفر الشيخ!

- ممم، كلا.

- طمئني!!!!!

- الإسكندرية.

- الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا خالدًا بخلوده..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

"اليوم أستطيع فقط أن أقولها، هذا أنا إياد عـ ـ ـزا"

- لقد نفد القلم عند اسمي! هاه، إنّك قلم مستفز.. ! ياللضجر! لن أكمله..

إياااااااد

- نعم يا أمي؟!!

العشاء جاهز!

- ما كل هذا يا أماه؟! لقد انتظرت طويلاً، انتظريني أنت هذه المرة..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

إياد !

بُني.

- أمي!!!

لقد طال شرودك! في ماذا كنت تفكر؟!

- أمي.. اقتربي.. اجلسي بجواري..

لقد تذكرت!!!.. تذكرت هذا اليوم الذي عرفنا فيه نتيجتي في الثانوية! بل وهذا اليوم الذي عرفتِ فيه أنّي قبلت بجامعة الإسكندرية! بل وتذكرت اليوم الذي كتبت فيه هذه الخاطرة!! نعم.. لقد كنت سعيدًا! كنت فخورًا بذاتي! تذكرت كل هذا بمجرد أن قرأت النَص! لقد كتبت هذا النص بمشاعري لا بيدي! حفِر في كل زاوية من زوايا قلبي! لا على الأوراق.."

في الحقيقة وبالرغم من أني تذكرت الموقِف! إلّا أنه كان يمر أمام عينيّ كشريط الفيديو! تذكرت إحساسي في اللحظة التي وقعت عيني فيها على المجموع ٩٧% وتذكرت أن قلبي كاد يقف حتى اكتمل تحميل الموقع! وتذكرت كل شيء إلّا شيئًا واحدًا!

لماذا كنت حادًا مع أمي بهذه الطريقة! بالرغم من أني كنت أدري دراية اليقين في قرارة نفسي أنها الوحيدة التي تحبني بصدق؟!

www.idafabooks.com

تذكرت أيضًا كل الليالي التي رفَضَت فيها أن تنام قبلي عندما كانت المذاكرة تأخذ من الليل شطرًا طويلاً! كانت تجلس بالقرب مني لتطمئن أني لن أحتاج إلى طعام أو مشروب ساخن مثلاً! وكان يطول جلوسها حتى تغفو على الأريكة ترفض أن ترتاح في سريرها لأني غير مرتاح! هي لم تلاحظ أنّي كنت أعي تمامًا كل تنازُلاتها! وكانت دائمًا تتهمني بالعقوق! وإن لم تلفظها صراحةً! ولكن.. للأسف.. لديها حق!

فأنا طوال عمري.. لم أستطع أن أخبرها كم أقدِّر أفعالها.. لم أستطع أن أخبرها أن تنازُلاتها كانت ولا زالت أكبر من أن أستحقها! وأني أكثر حقارة وتواضعًا أمام كل ما قدّمته لي.. ربما لهذا تفاجأت حينما نعتُّها بالـ "جميلة"... ربما كانت المرة الأولى التي أُزَل فيها وأخبرها أنها أجمل من رأت عيني! وكيف لا تكون؟! وهي أول من رأيت في عمري.. فصرت أقيس الجمال بمعايير وجهها لا إراديًا..

إن مشاعر الأم من أقوى قوى البشر! يمكنك أن ترى هذا حتى في القطط مثلاً! إذا حاولت إيذاء أطفالها تتحول إلى وحش مفترس..

تذكرت أيضًا كل الأيام التي عدت فيها من حصصي متأخرًا فكانت تجهز لي الغداء للمرة الثانية ثم العَشاء! لم تقل لي يومًا أنها تعبت ولم أسمع أنات آلامها لأنها دائمًا تغلق عليها الباب إذا تألمت

www.idafabooks.com

لكي لا تزعجنا ولكنّي وإن لم أكن أسمع.. كنت أشعر، إنّها تظن دائمًا أننا أضعف من أن نتحمل أوجاعها وهذه حقيقة.. ولكن ليس لأننا لا نريد ذلك! بل لأننا أضعف من أن نراها تتألم!

لم يسعني أن أغض الطرف عن هذه الذكريات وهي أول ما خطر في بالي الآن..

ولكن.. لا زلت لا أفهم، لماذا هذه المعاملة الجافة وأنا أعرف كل هذا، وأنا أدري كل الخفايا والتنازلات والآلام! في بعض الأحيان يكون الاعتياد هو السبب الرئيسي في قتل المشاعر.. وربما لأنّي أرى الصورة من بعيد جدًا الآن فأنا أدرك الأبعاد كاملة بدون تشويش!

وظل التساؤل لا يغادرني! كيف كنت أُظهِر عكس ما أُبطِنُ بهذه البراعة.. المشاعر ليست ضعفًا! بل إنّها عين القوة..

أود أن أقفز من مكاني أقبّل يدها، أعتذر لها، أعوضها عن سنوات الألم، ولكن هل يفيد الاعتذار الآن؟! هل سيصلح الاعتذار ما كنت أكسره فيها في تلك اللحظات؟! في بعض الأحيان إذا جاء الاعتذار في غير موعده لم يصبح له أي أدنى معنى ولا أهمية..

دمَعت عيناي! ولكن على الأقل عاهدت نفسي أن لا أحبس في صدري أي شعور بعد ذلك..

www.idafabooks.com

رفعت عيني من الكتاب.. نظرت لأمّي نظرة فاضت دموعًا! وظللت أنظر لها حتى تغيّرت ملامحها إلى العجب! وقالت "ماذا بك..؟"

قلت لها كلمة واحدة.. واعتراني الصمت..

"سامحيني.."

خفضتُ رأسي وتابعت القراءة..

((أخُط اليوم أول صفحة في هذه الحياة الجديدة، أخطّها واقعًا وتدوينًا، إنه اليوم الأول لي في الجامعة! أشعر بالحرية كما لم أشعر قط! وكأني كنت عصفورًا مُكبّلا بأغلال، أصاب هذه الأغلال ما أصابها فصار الطير طليقًا، أعلم أن أيام الجامعة صعبة وفي الحقيقة لم يكذب علي أحد هذه الكذبة اللطيفة "اتعب ترتاح" فأنا أعلم أن الحياة شقاء! ولكن هل أزيد الشقاء على نفسي بالقلق؟! سأتركها تأتي كما شاء الله، وعهد مني يا حلمي سألقاك يومًا))

ثم قلبت الصفحة!

www.idafabooks.com

((مضى أسبوع في الجامعة، من الواضح أنه سيكون عامًا ليس بالسهل، أتمنى لو يمر بخير، بدأت أشعر بالإجهاد ولا أدري كيف سأكمل! حتّى أنّي لا أستطيع أن أكتب المزيد الآن فقط أريد النوم))

أعدت قلب الصفحة..

((مضى خمسة أسابيع.. صار الوضع شاقًا..))

((مضى عام..))

ثم صفحة فارغة..

ظللت أقلب الصفحات سريعًا كلها فارغة، تعتلي كل صفحة تاريخها وتمتلئ الصفحات بالنقاط أو الفراغ وكأن لم يكن لي جهد ولا طاقة للكتابة! أكثر من ربع الكتاب فارغ!! ما هذه الحقبة؟! ألم يكن بها ذكريات أم ماذا؟!

وفجأة سمعنا صوت طرق على الباب.. أغلقت الكتاب ووضعته بجواري.

دخل فلان في زي مدني، أظن أنه الشرطي الذي كان هنا البارحة..

" كيف حالك اليوم يا إياد؟"

www.idafabooks.com

"أفضل من الأمس، شكرًا"

"متى ستستطيع أن..."

قاطعه الطبيب.. "هل يمكننا التحدث قليلاً بالخارج من فضلك؟"

فرد الشرطي "نعم بالتأكيد.."

وخرجا وخرجت معهما أمي..

في الحقيقة، عودة الذاكرة لم يكن بالأمر السهل؛ فهي أشبه برؤية فيلم مدته ساعتين بشكل كامل في دقيقة واحدة، دقيقة من أحداث أعوام مكثفة مركّزة متتالية! دقيقة تستعيد فيها ذكرياتك بحلوها ومرها ومشاعرها وضيقها وسعادتها وحزنها وكل تفاصيلها.. لم يكن الأمر هيّنًا، كان مثل تدفّق سيل من الماء عبر أنبوب بقطر الشعرة! يكاد ينفجر من قوة الضغط.. وبالرغم من ذلك فأنا حتى الآن لا أذكر سوى حياتي قبل الجامعة..!

دخل الطبيب مرة أخرى ولكن لم أجد معه الشرطي..

ثم قال لي "لا تقلق، لقد شرحت له الأمر وطلب إقرارًا طبّيًا بالحالة ليقدمه في أوراق القضية، لقد تعاملنا.."

www.idafabooks.com

مضت بعض الساعات وأنا أتحدث مع أمي حول أمر هذه الجريمة الغامضة ثم غفوت أنا قليلاً..

استيقظت من النوم مساءً فوجدت بجواري ورقة مدوّن عليها أسماء عديدة متتالية وبجوارها أرقام هواتف وكلمات كأنها شفرات.

محمود جراج وكابتن أكرم إلخ إلخ

بالطبع لم أتذكر أي اسم منهم وربما لا أعرفهم أصلاً لا أدري..

نظرت إلى يساري فوجدت أمي نائمة على الأريكة لم أرد أن أوقظها، سرحت قليلاً في دقات عقارب الساعة.. ثم طال الأمر

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل الثالث

الخامسة وثلاثون دقيقة

الخامسة وإحدى وثلاثون دقيقة

الخامسة وإحدى وثلاثون دقيقة ونصف

الخام .....

جرس باب –

- أبي! لقد كنت أعد الدقائق لحين عودتك.

كيف حال دكتور إياد اليوم؟

- لقد وفّى دكتور إياد بالوعد، ألم أعدك أن تعود وأنا في كلية الصيدلة؟

كنت أعلم يا عزيزي.

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

أذكر هذا اليوم بكل تفاصيله، كان والدي في عمل منذ شهر قبل اختبارات الثانوية، وعاد وأنا في الجامعة، إنها المرة الأولى في حياتي التي يغيب فيها والدي عن المنزل كل هذه المدة، إنّها المرة الأولى التي أدرك فيها أن الغياب موجِعٌ جدًا، إنّها المرة الأولى التي يتركنا فيها أحد أفراد المنزل ويسافر بعيدًا عنّا..

كانت الليالي الأولى بعد سفره قاسية للغاية.. كنت أتكئ فيها على وسادتي ليلاً أشعر أنّي أختنق، وكأن سريري الواسع شديد الضيق لا يسعني حتى! أو لا يسع خوفي من وحدتي بدونه ربما..

كانت المرة الأولى التي يعتريني الخوف حقًا! أدركت حينها فقط أنّي كبرت.. صرت أخشى على والديّ أكثر من ما أخشاه على نفسي، تبدّلت الأدوار وبِتُ أشعر أنّي أنا والدهم لا هم والداي!

اعتدت أن أتصل به كل ليلة قبل أن أنام.. وأذكر تلك الليلة التي اتصلت به في الساعة العاشرة مساءً كالعادة ولكن لم يجب على الهاتِف!

أقسم أن قلبي كاد ينفطر من القلق..

ظللت اتصل به كل عشر دقائق حتى الساعة الثانية عشرة منتصف الليل.. ولم أخبر أمي أنه لا يجيب على الهاتف حتى لا أزيد الطين بلة!

www.idafabooks.com

ولكن.. عندما حل الثلث الأخير من الليل وكاد الفجر يقترب فزعت من مكاني إلى أمي فجأة.. "أماه.. استيقظي رجاءً لقد حاولت الاتصال بأبي منذ العاشرة لا يجيب على الهاتف، وها قد صارت الثالثة والنصف فجرًا.. أنا لا أستطيع النوم.."

وجلستُ بجوارها واضعًا يديّ على وجهي ناظرًا إلى الأرض أخبئ دمعة في عيني.. قامت أمي من مضجعها بكل هدوء.. لكنّي كنت أعلم أنه هدوء كاذب وأنها من داخلها تموت رعبًا وأنها تحاول تلطيف الموقف.. جلسنا أنا وهي نتصل به لا أحد يجيب.. فقررت الاتصال بزميله في العمل في الكويت "علي علّام" هو من أكفأ المهندسين ويحترم أبي كثيرًا وجمعتهما الزمالة المهنية لسنوات حتّى سافرا معًا، اتصلت به في الرابعة فجرًا وكانت المفاجأة..

لا يجيب على هاتفه هو الآخر..

ظللت أتصل وأتصل وأتصل حتى السادسة صباحًا ولا إجابة من هذا ولا ذاك!

وضعت رأسي على الوسادة أحاول النوم.. أحاول أن أكتم أفكاري وأوقف دماغي عن العمل.. لكن التوتر سيطر بالكامل على الموقِف.. لا أنا أهدأ ولا أستطيع أن أنام ولا أمي كذلك.. ظلّت أمام التلفاز تحاول إلهاء نفسها ممسكة الهاتف بيدها لعله يتصل في أي لحظة، حتّى غفت من الإعياء في الثامنة صباحًا ولم أغفُ أنا..

www.idafabooks.com

صارت التاسعة صباحًا وبدأ وجهي في الاحمرار وزادت درجة حرارته من شدة ما أعياني، لقد كسرت للتو الخمسة وعشرين ساعة يقِظًا لم أنم ولا دقيقة.. حتّى رن الهاتف في تمام التاسعة..

عدوت أنا وأمي إلى الهاتف فاختلفت عليه يدانا حتى وقع أرضًا لكن لم يصبه أذى.. كان رقمًا غريبًا يتصل بنا.. زاد الأمر ذعرًا في نفسي..

لا أدري لماذا ولكن في جزء من اللحظة توقعت أن يكون هذا هاتف مستشفى أو قسم شرطة مثلاً في الكويت يحاولون الاتصال بنا لإخبارنا خبرًا غير سار، إنها اللحظة الفاصلة بين حياة أو موت، بدأ جسمي في البرود والارتعاد في تلك اللحظة..

المتصل: "ألو، من معي؟"

إياد: "نعم سيدي، إلى من أتحدث أولاً؟"

"أنا علي"

- "مهندس علي علام؟"

"نعم، قد وجدت منك اتصالاً بتوقيت الفجر، أعتذر لقد كان الهاتف صامتًا"

www.idafabooks.com

- "لا يهمك، أنا إياد ابن المهندس أحمد عزّام، لقد كنت أتصل بوالدي طوال الليل ولا أحد يجيب فقلقت جدًا عليه ووجدت هاتفك عندي فاتصلت بك أطمئن عليه"

"حسنًا، الذي اتصلت عليه هذا هاتف العمل أما الذي أحدثك منه هو هاتفي الشخصي.. اعذرني أنا لم أرَ والدك منذ يومين".

توقف بي الزمن وزاد شكّي بأن ما دار في بالي هو الحقيقة وأن والدي أصابه مكروه! كنت أحاول أن أتمالك نفسي وأجد أي تفسير آخر ولكن عقلي كان مستسلمًا تمامًا لهذه الفكرة..

إياد : "أخبرني كيف أطمئن عليه إذًا؟!!"

مهندس علي: "حسنًا، سأتصل بالمكتب وأعيد الاتصال بك.."

- "شكرًا"

ثم أُغلِقَ الخط..

نظرت للساعة وكنت أعد الثواني والدقائق وكانت الثانية تمر كأنها سنة، كنت أضع بين يدي كل دقيقة عامًا من القلق..

إلى أن رن الهاتف..

رفعت السماعة قبل أن أنظر إلى الرقم حتى..

www.idafabooks.com

- "ألو، مهندس علي؟؟!"

فردت سيدة!

"لا يا سيدي، معك شيرين سكرتيرة مكتب شركة كذا للمقاولات، هل أنت أستاذ إياد؟"

- "نعم، نعم أنا إياد.. أريد التحدث إلى المهندس أحمد عزّام من فضلك.."

"المهندس أحمد عزّام؟ انتظر معي دقيقة من فضلك"

مرّت نصف دقيقة ثم سمعت صوت رجل

"ألو.."

- "ألو.."

"إياد.. كيف حالك؟"

- "أبي؟ هل أنت بخير؟"

"نعم بني بخير.. ماذا بك؟ تتصل علي في العمل؟؟"

www.idafabooks.com

إذا حاولت مهما حاولت أن أصف لذة هذه اللحظة التي اكتشفت فيها أنه بخير لن تسعني الكلمات، حتى أن كل همي زال وكدت أغفو وأنام وأنا واقِف على قدميّ..

- "أبي اتصلت بك كثيرًا بالأمس حتى مللت الاتصال"

"آاهاا!. أعتذر لك عزيزي، لقد سُرِقَ هاتفي صباح أمس ولم أشترِ واحدًا بعد".

- ماذا عن أستاذ علي؟؟ لقد قال لي إنه لم يرك منذ أيام!

"نعم، لم أره فعلاً ولم يرني.. هو في إجازة منذ يومين أو ثلاثة لا أتذكر لكنه سيعود قريبًا بإذن الله"

- "حمدًا لله على سلامتك يا أبي.."

كنت أقول هذا الكلام وأنا أشير بيدي لأمي على ابتسامتي لعلها تفهم أنه بخير قبل أن أنهي مكالمتي..

وما إن أنهيت المكالمة حتى وجدت أمي تضع يدها على قلبها وتقول "حمدًا لله ، سننام أخيرًا قبل الظهر" وابتسمَت وذهب كلانا للنوم..

مرّت الأيام في غياب أبي كلها على هذا الحال من قلق وشوق، كنت كلما احتجت استشارة أو سؤالا أو أو أو لم أجده بجواري لكن

www.idafabooks.com

كنت أشعر به في كل أفعالي.. أظن أنّي شربت طبعه حتى صرت أتصرف مثله في كل شيء، يمكنني توقع ماذا كان سيفعل لو كان مكاني ثم أُبلي مثله تمامًا حتّى صرت في هذه الفترة نسخة منه، لا يخفى عليكم أن أمي كانت تكرر هذه الجملة على مسامعي كثيرًا "أنت نسخة من والدك".. كنت أشعر بسعادة غامرة عند سماع تلك الكلمات منها.

انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر.. اليوم الذي انتهى فيه مشروع المدينة السكنية في الكويت وأنهى أبي عمله هناك.. قال لنا إنه سيستقل طائرة إلى مطار برج العرب على أن يكون في المنزل في تمام الخامسة..

كنت في عمر التاسعة عشرة وقتها أي لم أكن طفلاً!

جلست أمام الساعة من الخامسة إلى الخامسة والنصف تقريبًا حتّى دق جرس الباب..

كنت أظن أن للقاء لهفة وأنه شيء قوي المشاعر! لكنّي في هذا اللقاء فقدت كل مشاعري! انهرت أمامه وتلعثم الكلام في شفتيّ ولم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة تعبر عن ما كان في صدري، ربما أحيانًا فرط الشوق يُعجِز العقل.. يوقفه عن التفكير ويُلجِم اللسان.. إنها حقًا لحظة شديدة الخطورة.

www.idafabooks.com

مرّت كما مرّت.. أظن أنه قال لي وقتها "أم نقول يا دكتور إياد؟"

فضحكت وأجبته "لقد وفيت بوعدي"

ثم هرعت إلى غرفتي وأغلقت الباب برفق.. وأسندت ظهري إلى الباب.. وبكيت حتى ارتوت الأرض من بكائي.. وكأن صمودي طوال فترة غيابه جاء أمامه وانهار..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل الرابع

استفقت من أحلام اليقظة تلك.. وجدت أمي بدأت في الاستيقاظ على صوت طرق الباب.. "أهلاً أهلاً وائل".

"إيادنا الشاب الوسيم، كيف حالك اليوم؟"

- "سعيد، سعيد برؤيتك يا صديقي"

ربما ستكون أكثر سعادة بعد قليل..

- "ماذا تقصد؟؟؟"

"لن أستطيع أن أخبرك المزيد من التفاصيل.."

وضحك ضحكة غريبة ورحل..

www.idafabooks.com

مرت الدقائق وأنا أحاول أن أخمن ما يمكن أن تكون هذه المفاجئة التي يعدها لي وائل؟ أتمنى فقط أن لا يكون شيئًا صادمًا.. فأنا لا أحتمل المزيد من الصدمات حاليًا.. سَبِحتُ كثيرًا في بحور خيالي حتى أنّي توقعت أن يدخل عليّ الغرفة بخيلٍ مثلاً نظرًا لأني أحب الخيول كثيرًا! ثم ضحكت من سفاهة تفكيري وقررت أن لا أتوقع..

طرق الباب طرقة غريبة.. خبطتين وبرهة من الصمت وخبطة.. ثم فُتِحَ الباب برفق وبطء شديدين.. تعتري المقبض يد بيضاء بأظافر زَهرية! وخاتم ماسي وهّاج البريق! وإذا بفتاة غريبة الشكل! جميلة المظهر! تدخل الغرفة.. نظرت لأمي بابتسامة خفيفة فأشارت لها أمي بالدخول..

كان مظهر الفتاة غريبًا! كانت ترتدي فستانًا ضيقًا على عودها النحيل، وجاكيت طويلا إلى الأرض وحزامًا بألوان القهوة متدّرجة برقي وحشمة! وحذاءً أنثويًا بكعب عالٍ جدًا، وتحمل في يدها حقيبة ثمينة! كان يظهر على هيئتها الوقار بشكل غريب بالرغم من صغر سنها!.. كانت تضع القليل من الكحل الذي لا يلائم جمال عينيها، ربما كان اللون الأزرق في عينيها يغطي سواد كحلها! إنها المرة الأولى التي أكتشف فيها أن هناك زُرقة أجمل من البحر! وأبهى من السماء وألمع من المرايا! سبحان من خَلَق!

www.idafabooks.com

جلست أمامي في هدوء تام ووقار ولم تبتسم لي.. ظللت أنظر في تلك العيون لا أستطيع أن أرفع ناظريّ عنها، كأنها بحور من الذكريات.. لم أرَ الغرفة ولا أحدًا ولم أستدر ولم أدرك الدنيا كلها.. حتى قطع شرودي صوت همسها:

"مرحبًا.. كيف حالك اليوم؟"

انتفضت من مكاني ناظرًا إليها.. زادت نبضات قلبي بشكل غريب.. جحظت عيناي عليها، تسارعت أنفاسي أكثر وأكثر..

ثم صَرَخت:

"جيداء!"

وفقدت الوعي تمامًا..

www.idafabooks.com

عندما استفقت في الغرفة على رائحة النشادر النتنة.. لم أجد لا جيداء ولا وائل ولا أحد سوى أمي والطبيب..

قائلاً لي "لا تقلق هذه إغماءة بسيطة.. استجابة من العقل إلى التغيرات الفيزيائية والكيميائية التي حدثت بجسدك نتيجة عودة جزء من الذاكرة.. من الواضح أن هناك شيئًا أثّر بك كثيرًا حتّى أنه أصابك بنوبة توتر حادة للغاية أدت بالعقل إلى محاولة فصل الجسد مؤقتًا عن العمل كي لا يصاب بالمزيد من الأذى.. إنه رد فعل طبيعي لا داعي للقلق.."

كانت أمي بجواري.. قالت لي "لو كنت أعلم أن حضور جيداء سيسبب المتاعب ما كنت سمحت لوائل أن يحضرها".

فقلت لها "لا يا أمي.. أنا لا أتذكر عنها شيئًا.. لكني أشعر بأشياء متضاربة.."

"أمي.. إني أشعر بشيء غريب! كأن مشاعر الدنيا كلها هنا.. نعم هنا في صدري.. هنا في مكان ما لا أعرفه.. أنا حتى لا أعلم هل هي مشاعر ضيق أم سعادة.. أنا لا أعرف شيئًا! ولكني أشعر بكل شيء"

قال الطبيب.. من الأفضل أن تنام الآن وسنتابع حالتك حتى غد..

www.idafabooks.com

وبالفعل.. حاولت تهدئة نفسي لأنهي تلك الليلة.. وظلت صورة جيداء تلك تدور في رأسي حتى نمت عنها..

"لن ترحلي يا جيداء.. لاا لن ترحلي...."

❊ ❊ ❊

استيقظت مفزوعًا على هذه الكلمات ترن في أذني..

بمجرد أن وجدت العصافير حولي بدأت أهدأ قليلاً.. لكن كنت شديد التوتر من تلك الكلمات التي ترددت في منامي..

مضى هذا اليوم بالكامل وأنا أشاهد التلفزيون.. أقلِّب الأخبار قليلاً ولا أفهم منها شيئًا، لا أعلم عن السياسة ولا الاقتصاد ولا البورصة ولا ولا ولا! فأنا من زمن آخر..

ظللت أقلب القنوات حتى جاءت قناة الرياضة.. كانت مباراة تنس لفتت نظري كثيرًا.. ظللت أتابع المباراة واخترت لاعبًا لأشجعه وظللت أتمنى لو يفوز حتى نهاية المباراة.. وما إن أُعلِنَ فائزًا بدورة الألعاب الأوليمبية شعرت وكأنّي أنا الفائز.. كنت سعيدًا جدًا..!

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

بهي: إليك الكرة يا إياد!

إياد: بهي.. أنها في غاية الارتفاع.. اضبط يدك من فضلك.

بهي: لا تريد أن تعترف أنك لا تستطيع اللعب هههه صحيح!

إياد: بهي! أنت تعرف جيدًا أني لاعب محترف..

بهي: حسنًا يا حبيبي.. سنرى من فينا سيفوز!

إياد: لا تتحداني يا بهي..

بهي: سأتحداك وأستأجر أشخاصًا يتحدونك يا عزيزي.

إياد: حسنًا.....

بهي: آه.. كيف تجرؤ يا وغد على ضربي بالكرة هههه..

إياد: أوه.. أعتذر لم أكن أقصد.. ولكن هذه المرة أقصد.

بهي: آاااااااااه.. كم أنت سخيف.. إنها المرة الثانية.. حسنًا.. خذ هذه.

إياد: آاااااه من لعب الصبيان هذا.. كف يا بهي..

((صفارة المدرب))

"إياد.. اجتمع مع الفريق بعد خمس دقائق.."

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

أتذكر الآن كل التفاصيل.. لقد كنت لاعب تنس.. عندما أخذت هذا القرار لم أكن كبيرًا ولا صغيرًا.. لكنّي شغفت بهذا المجال كثيرًا.. كنت أرى في كل مرة تتحرك فيها الكرة بين اللاعبين عَظمةً ووقارًا.. كنت أشعر أنها لعبة الملوك وهذا مكاني!..

أحببت التنس جدًا وأُحبَطت كثيرًا في الفترة التي توقفت فيها عنه في الثانوية.. ربما كان هذا هو السبب الرئيسي في اكتائبي خلال هذا العام، إن التنس بالنسبة لي كان أكثر من لعبة.. فقد احترفته حتى تفوقت على جميع أقراني، وكان هو السبب الأول في معرفتي ببهي الدين الذي اكتشفت بعد ذلك أنه زميلي في كلية الصيدلة، أنا وبهي الدين كنا نشبه بعضنا في الكثير من الأشياء، كما كنا نلعب الكثير من المباريات الودية معًا لأننا لم نكن ننتمي لنفس النادي..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

المدرب "هناك مفاجئة سارة جدًا للفريق.. لقد تم اختيار عدد محدود منكم للتأهل لنهائيات بطولة الإسكندرية! ما إن يفوز سيتأهل تلقائيًا إلى بطولة الجمهورية.. ومن يعلم ماذا بعد ذلك.."

شعرت في هذا اليوم أنها فرصتي أخيرًا لأحقق حلمي..! وقد كنت من أكفأ اللاعبين وأكثرهم تعرضًا للمدح من المدربين.. توقعت بسهولة أن يختارني المدرب للتأهل للبطولة.. خضعت لتمارين مكثفة جدًا لمدة شهر، أذكر أن هذا كان في الصيف بعد العام الأول لي في الجامعة..

حتّى جاء هذا اليوم الذي سيعلن فيه المدرب عن أسماء المتأهلين للبطولة..

اجتمعنا في غرفة صغيرة أنا واللاعبين كلهم، وبدأ المدرب في ذكر بعض الأسماء الذين قال عنهم إنهم لا يصلحون مطلقًا وأنهم يحتاجون لتدريب طويل.. ثم قال إنه سيذكر عدة أسماء بعدها ليبدأوا في التدريبات النهائية..

"مستعدون يا شباب؟

محمد محمود أكرم

أحمد بهنسي

www.idafabooks.com

رانيا خالد

سارة طارق

إياد أحمد"

لم أسمع اسمًا بعد اسمي.. رغم أنه ربما ذكر عدة أسماء بعده.. لكن غمرتني السعادة.. وكان كل شغلي الشاغل أن أفوز بالبطولة..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

أتذكر بقوة أول مباراة خضتها في بطولة الإسكندرية.. أتذكر أني عانيت الأمرّين حتى فزت.. حتى أن تلك الليلة احتفل بي أصدقائي في أحد المقاهي الفارهة على البحر ثم استأذن أحدهم للذهاب للحمام واستأذن الآخر للتحدث في الهاتف واستأذن الرابع للرحيل في نفس اللحظة.. واكتشفت بعدها أنهم كانوا ينصبون لي فخًا أن أدفع ثمن المشروبات.. كانت مزحة متخلفة لكن ضحكنا كثيرًا في هذا اليوم وقابلتهم بعدها في ستانلي وأخذت منهم حق المشاريب واحدًا واحدًا ولكن لم يكن هذا الحق مالاً، لا يهم ماذا كان، المهم أنّي تعاملت.. كانت ليلة من ألطف ما مر عليّ..

عدت وأنا في غاية السعادة.. ما إن رأيت أمي في المنزل بعد عودتها من البطولة نظرت لها بفخر قائلاً.. "أعدُ أني سأعود بكأس مصر.." .. سعدت بهذه الذكرى الطيبة التي جمعتني بها.. وأتمنى أنها ليست الأخيرة..

مرّت الأيام واستطعت بالكاد أن أعبر كل المراحل حتى تأهلت للمباراة النهائية لبطولة الإسكندرية.. هذا اليوم الذي كنت أحلم به طوال عمري، أن أكون بطل محافظتي التي ولدت بها ويدوّن اسمي بين أبطالها.. كنت أُقدِمُ على هذه المباراة وعيني على كأس العالم لا عليها.. أقدمت عليها بكل شغفي وحبي وقدراتي..

حتى كانت الصدمة..

www.idafabooks.com

كانت المباراة النهائية بيني وبين بهي الدين كُلٌ يحمل اسم ناديه!

ما إن بدأت المباراة.. بدأت أشعر بالارتباك.. لا أعرف لماذا ولكن واصلت اللعب وكنت أركز على الكرة بشكل جنوني حتّى أني لم أكن أرى سوى لونها الأصفر في الساحة.. كنت أركز على الكرة بشكل مبالغ فيه وعلى تعابير وجه بهي الدين الذي كان يتصبب عرقًا، في الحقيقة كان جبيني يعتريه من العرق ما يعتريه! كنت متوترًا مثله وأكثر.. وكانت المباراة سجالاً بيننا.. ظل التعادُل حليفنا حتى قرب نهاية المباراة، ارتفعت أصوات أصدقائي باسمي وارتفع اسم بهي الدين بين المدرجات! كنت وقتها في حالة هلع! أستزيد من التركيز على وجه بهي الدين حينًا ومع صوت الجمهور حينًا ومع الكرة حينًا! كانت مباراة شاقة للغاية..

أمّا الكرة الأخيرة بيني وبين بهي فكانت بعيدة جدًا! حاولت بكل طاقتي أن أصدها إلى أن لمستها بحرف المضرب.. انتهت المباراة بفوزي! تلك اللحظة التي هتف الجمهور فيها باسمي.. صراخ أقاربي الصغار ولهفة أمي.. قفزة أبي من بين المدرجات إلى أعلى وكأن منتخب مصر حصل على كأس العالم مثلاً! كل من حولي لم أرهم هكذا يومًا!!!

شعرت في تلك اللحظة أن الدنيا كلها سعادة فقط.. وأن لا مكان لليأس وأنا الآن بطل الإسكندرية.. يا للروعة.. يا للشعور!

www.idafabooks.com

مرّت الأيام بطيئة بعد هذه البطولة، كنت أتدرب بشكل أكثر تكثيفًا استعدادًا لبطولة مصر.

كنت أضع عيني نصب الكأس لا شيء آخر.. لكن ليست الأمور دائمًا تسير كما نريد.. بعد فترة وجيزة من أيام التدريب وقعت على كتفي الأيمن في النادي وتعرضت لإصابة شديدة الخطورة.. كُسر فيها ذراعي الذي ألعب به وخلع في الكتف!

كانت أمي بعدها لا تطفئ الرقية الشرعية من المنزل وسورة البقرة وكانت تضع يدها على رأسي وتقول لي "عيون الناس لا ترحم.."

أقسم إن هذا الكسر لم يكن بذراعي.. بل كان بقلبي.. لقد تحطمت فرصتي في بطولة الجمهورية تمامًا.. ولكن ما هدّأني هو رد فعل أبي وأمي.. فكان أبي طوال أيام التعافي يقول لي "كسر دون كأس أفضل من موت بكأس" كما كان شديد الهدوء دائمًا وظل يناديني بـ "بطل الإسكندرية" بدلاً من "دكتور" لأكثر من عام..

هان الأمر ومر..

وفي أحد الأيام الأولى في التعافي من الكسر.. كنت أفتح حسابي على فيسبوك بالصدفة.. فوجدت بهي الدين يكتب على صفحته أنه فخور بتأهله لكأس الجمهورية.

www.idafabooks.com

فهمت بعد ذلك أنهم استبدولني به بعد إصابتي..

ولكن كل ما ضايقني في الأمر ليس كفاءته ولا إذا كان يستحق أو لا.. ولكن كان التساؤل الذي دار في بالي.. "لماذا أفوز أنا ويصعد هو؟!"

❊ ❊ ❊

مرّت الأيام عليّ وأنا في المستشفى التي لا أعلم اسمها حتى! إلى أن جاء هذا اليوم الذي أخبرنا الطبيب فيه أن لا داعي للبقاء في المستشفى أكثر من ذلك، ويمكنني العودة للمنزل واستكمال الشفاء في سريري.. كان خبرًا سعيدًا في الحقيقة.. لأني أردت بشدة أن أعود لمنزلنا فهو أكثر الأشياء التي أذكرها، خرجت أنا وأمي وعمي من المستشفى واتجهنا إلى الكورنيش ثم كيلوباترا، كنت أعد درجات السلم أثناء الصعود كما اعتدت أن أفعل في صغري تمامًا، حتى وصلت إلى منزلنا المتواضع ودخلنا وفتحت الضوء..

"ما هذا؟!، أين منزلنا؟!"

"أي منزل يا عزيزي؟؟ هذا هو منزلنا!"

أمعنت النظر في تفاصيل المنزل واستطعت أن أميّز أن كل غرفة في مكانها فعلاً ولكن.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها هذا الآثاث وتلك الحوائط! المنزل صار أكثر تطوّرًا.. كيف تحوَّل في يوم وليلة؟!

www.idafabooks.com

ولكن لحسن الحظ بعد التجوّل في هذا المنزل الغريب اكتشفت أن غرفتي لم تتغير وكان هذا من دواعي سروري جدًا.. فقد كنت أحب ديكورها البالي.. أظن أنّي رفضت تغييرها عندما أعادوا تجديد المنزل..

لا أخفي عليكم أنني حين دخلت غرفتي نظرت إلى كل ركن فيها.. وجدت أثاثًا، أخشابًا، زجاجًا، قماشًا، حوائط، طوب.. نعم، كل شيء هنا هو جماد، ولكنه أول جماد تدّب الروح فيه! كل ركن في الغرفة كان ينطق، كان ينطق بلا حروف وبلا كلمات وبلا صوت، وكأن غرفتي تقول لي "مرحبًا بعودتك يا إياد"، حتّى شريط النور الأصفر الذي كنت أعلّقه في غرفتي، عندما أضاء تخيّلت أن دفئه يود لو يحتضنّي، ارتميت في أحضان سريري، أنا لا أذكر غير هذا المكان من كل هذا المنزل، هذا هو المكان الدافئ الوحيد من بين كل هذا المنزل البارد، هذا هو موطني..

كان سريري شديد الدفء، وكأني أغوص فيه، احتضنني وكأنه جزء من ذاتي.. إلى أن نمت.

مرّت الأيام، لم أعِد قراءة هذا الكتاب مرة أخرى.. ولكن في كل مرة كنت أذهب فيها إلى السرير أتقلّب يمينًا ويسارًا وكأنّي أتقلّب في بحر من المشاعر المُختلطَة، مزيج غريب من الألم والراحة، السعادة ثم الحزن، كنت أرى صورة جيداء في كل جانب أتكئ إليه، رغم أنّي فعليًا لم أحتفظ لها بأية صورة إطلاقًا!، وكأنّي أتذكر كل شيء

www.idafabooks.com

وكأن جزءًا مني يرفض أن يتنازل عن كل ذكرى جمعتني بها بل ويصر ويبذل كل الجهد ليحاول إفاقة الذاكرة وإيقاظ اللحظات وإنعاش كل شيء وإن كان من ضمنهم ذكرى الألم! ترى ماذا فعلتِ يا جيداء.. أقصد (يا جيدا)..

هذه الليلة ظللت أنظر إلى سقف غرفتي، اتقلّب يمينًا ويسارًا لم أستطع أن أغفو، قمت من سريري إلى المطبخ، بدأت في تسخين رغيف خبز، شعرت ببعض الصداع وذهبت لأبحث عن علاج ولكن لم أتذكر أين أضع الأدوية، بحثت كثيرًا ولم أجد شيئًا، ثم شممت رائحة دخان، لم تمض ثوانٍ إلى أن أدركت.. أعتقد أن الغباء تملّكني وأحرقت رغيف الخبز.. أطفأت النار ونسيت الفكرة، لم أعد جائعًا بعد هذه الرائحة الرائعة.. كانت المشكلة الصغيرة التي تواجهني ليست في أن أمي حتمًا ستنزعج لما حدث، بل لرائحة المنزل التي أصبحت رائعة هي أيضًا، دخلت غرفتي فوجدت زجاجة عطر ممتلئة إلى نصفها، رششت منها الكثير حتى أخفي تلك الرائحة، ربما تغطي الدخان!

وذهبت لأنام.. ولم أستطع.. ولكن....

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل الخامس

كافيه فاخر.

على أحد طاولاته مجموعة من الشباب يضحكون بأصوات عالية وأصوات الكئوس على الطاولة بلغت أقصى الزوّار وأدناهم.

إياد: هههههههه، لا أظن ذلك يا وائل!!!

وائل: ما الذي لا تظنه يا إياد؟ الأمر واضح مثل الشمس تمامًا!

إياد: لا أظن ذلك.. هالة زميلة ليست أكثر وهي تعلم ذلك، أنا لا أنظر للمظهر ولا يعجبني جمالها.

وائل: إذًا هذا رأيك؟ لا تريد أن تصدق أنها معجبة بك للغاية!.. لقد سمعتها عدة مرات تتحدث مع شيماء وهما ينظران إليك تمامًا! فهل يخفى الخبر؟

www.idafabooks.com

إياد: يااااه! إنك مستفز فعلاً! هذه الأمور تضايقني! لا تحدثني عن هالة مرة أخرى!

وائل: هالة تحبك..

إياد: أنت تكذب.. ثم وإن كان.. ماذا أفعل أنا؟ ما ذنبي؟!

وائل: ولماذا سأكذب عليك في شيء مثل هذا!

إياد: لا أعلم، ولكن لا شيء اسمه أحب.

وائل: ماذا؟؟!!

إياد: نعم يا عزيزي.. إنه وهم.. أنتم تتخيلون أن بعض الارتباك وبعض الأمارات حبًا! ولكن في الحقيقة إنها بعض المواد الكيميائية والهرمونات مثل السيراتونين والأوكسايتوسين وغيرهم يجعلونكم تشعرون بأحاسيس غريبة لا تجدون لها تفاسير فتقولون حبًا.. بالرغم من أن الأمر واضح جدًا! الحب وهم كبير..

وائل: إذًا أنت لا تحب والدتك.

إياد: بلى.. أحبها.. ولكن هذا أمر مختلف..

وائل: أنت دائمًا هكذا.. أعمى المعنى مُبصر المادة!

إياد: لا تخلط الأمور من فضلك.

www.idafabooks.com

وائل: لا أفعل، أنت من يفعل.. سترى يا إياد، ستقع في مرة ولن تستطيع القيام بعدها حتى تؤمن أن هناك أشياء أكبر منك ومن غرورك هذا..

إياد: بلا بلا بلا، أرجوك انسَ أمر شيماء وهالة هذا..

وائل: حسنًا، كيف حال ذراعك الآن؟

إياد: أشعر بتحسُّن عن ذي قبل.. شكرًا.

وائل: لا أسألك لتشكرني، هذا واجبي.

إياد: حسنًا، لا شكر.

وائل: سخيف أنت..

إياد: أشكرك..

وائل: لا أسبك لتشكرني، هذا واجبي أيضًا..

إياد: حسنًا لا شكر..

أحد الأصدقاء: اصمتا يا سخيفين، أحدهم يلقي نكات بجواركما وأنتما لا تستمعان.

وائل: هل سمعت شيئًا؟

www.idafabooks.com

إياد: شيء مثل ماذا؟

وائل: شخص يقول اصمتا مثلاً.

إياد: لا لا، لم أسمع..

وائل: حسنًا ماذا كنا نقول؟

إياد: آه كنت أسألك، متى تبدأ الدراسة؟

وائل: لا تستعجل! أعتقد بعد أسبوع.

إياد: لا تتخيل لهفتي للتخرّج..

وائل: تخرج! لم ننهِ سوى عام واحد.

إياد: نعم.. أليس كافيًا؟

وائل: آه.. بالتأكيد كافٍ..

إياد: تأخر الوقت.. هيّا بنا؟

وائل: حسنًا.. شباب سنستأذن أنا وإياد..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

وائل: أول يوم وتتأخر هكذا؟؟

إياد: نعم وأتأخر ولا أحضر كذلك وكلمة أخرى سأرحل يا وائل.

وائل: يا لك من عصبي! أنا أمزح.. اجلس..

إياد: أعلم، ويالك من نشيط!

وائل: هل تنعتني بالنشيط؟!!!

إياد: نعم.. يا نشيط، يا نشيط، يا نشيط..

وائل: حسنًا، المهم، لماذا تأخرت اليوم؟! لم يتبقّ سوى دقائق وتبدأ المحاضرة.

وائل: "إياد، هل نمت متأخرًا بالأمس؟

إياد، اتصلت بك ولم ترد علي!

إياد.. يا رجل، يا فتى..

إياااااااااااااااد"

إياد: هه؟.. آسف.. ماذا كنت تقول؟

وائل: أين ذهب عقلك يا رجل؟! أتحدث منذ ساعة ولا ترد!

www.idafabooks.com

إياد: من؟

وائل: من من؟؟!

إياد: أنا أعرف الدفعة فتاة فتاة وشابًا شابًا..

وائل: ماذا تقول أنت؟؟؟!!

إياد: من هذه؟

وائل: لا أعلم! أظن أنها راسبة من العام الماضي.

إياد: ماذا؟!

وائل: كيف لهذا الجمال أن يرسب؟! وا أسفاه..

إياد: ماذا تقول يا وائل؟ اصمت..

وائل: حسنًا.. ولكن لماذا تسأل؟

إياد: لا شيء.. استفزتني فقط، فأنا أعرف الدفعة بالكامل وهذه المرة الأولى التي أراها فيها..

وائل: لا تأبه.. مرر الأمر.. واصمت فقد بدأت المحاضرة

إياد: حسنًا..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

كنت واقفًا أمام حوضي أغسل أنابيب الاختبار قبل بدء الحصة، وفجأة طرق أحدهم على ظهري قائلاً:

"دكتور من فضلك. أرى معك الكثير من الأنابيب.. هل يمكن أن تعطيني واحدة إضافية؟"

استدرت أرى من صاحبة الصوت، فإذا بها تلك الفتاة التي دخلت المدرج في الصباح، في الحقيقة من شدة الارتباك اللا منطقي أوقعت كل الأنابيب في الحوض دفعة واحدة وكُسِرت كلها.. فاستدرت وابتسمت لها وسندت بقدمي اليسرى إلى الحوض وقلت لها "هاه، أي أنبوبة تريدين؟"

فضحكت.. فضحك الكون كله.

ظلّت الأيام تمر وأنا أرى تلك الفتاة كل يوم، لا نتحدث أبدًا، ربما أومئ برأسي لها فتفعل كذلك، غريبة هي تلك الخفقة التي تراود قلبي إذا رأيت اسمها بالصدفة في الكشوفات أو لمحتها تمر بين الزحام.. لم أجد تفسيرًا لهذا الشعور المزعج الجميل سوى أنه خليط من كل مشاعر الأرض.. ولكنها كانت تستحقه..

كانت تراني فيما اعتادت أن تراني فيه، أرسل لها السلام لا يهم من بدأ، ولكنها لم تكن تراني وأنا أرسل لها شوقًا إذا طالت الإجازات!.. كان يستفزني الأمر كثيرًا فأنا لا أستطيع أن أفسر

www.idafabooks.com

أسباب انجذابي لها بقوانين المنطق.. وكان هذا تحديدًا سبب استفزازي.

ولكن كان لديّ إيمان لا يتركني أن الله جعل لكل شيء مخرجًا، حتى تعلّقنا بالأشياء والأشخاص حتمًا له سبب، كنت أومن أنها لو كانت شرًا لما وضع الله في قلبي لها من فرط المشاعر نصيبًا، كنت أومن أنّي لو اتقيّت الله حتى في نظراتي إليها فلن يتركني، حتّى أنّي في كل مرة كنت أظن أن كل الأبواب أوصِدت يجب أن أجد باباً يُفتَح، وفي كل مرة كنت أجد جدارًا سدًّا، كان يُفتَح لي من بين عتمته باب، لا أجد نفسي سوى ألتمسه، ولكن كان ينتهي الطريق مرة أخرى بشكل أعمق! هذه المرة لا جدار لا باب لا شيء.. إنها الهاوية.. فكنت أطير..!!!

كانت الأيام تمر بشكل غريب، برتم ثابت، لا أنا أقترب ولا النيران تشتعل، ولكنّي كنت أومن دائمًا أن الحياة ليست بالسهلة وليست بالمستحيلة أيضًا، فليس دائمًا مقدّمات الأشياء تدل على نهايتها ولا يُستَدَّل على بواطن الأمور من ظوهرها.

مرّت الأيّام طوالاً، حتى هذا اليوم..

دكتور إياد، أعلم أن الأمر سخيف ولكن من فضلك كفى.

- كفى! كفى ماذا يا دكتورة جيداء؟ ماذا هناك؟

www.idafabooks.com

كفاك تُرسِل لي الجوابات كل يوم تضعها على مكتبي!

- أي جوابات؟ ماذا تقولين؟!

أليس أنت من أرسل لي ثلاثة جوابات في أسبوع؟

- يا الله! لا أفهم منكِ شيئًا!

!!!، كيف هذا؟ إنه إمضاء بحرف E، أنا لا أعرف سواك بهذا الاسم!

- لا يا دكتورة، ليس أنا، أليس من الواجب أن تتأكّدي قبل أن تتهمي الناس؟!

أعتذر! أعتذر جدًا..

في الحقيقة.. اشتعلت في قلبي نيران الغيرة، وددت لو أجد هذا الوغد وأُطبِقُ السقف على رأسه، أو أدفنه حيًّا وأراه يتعذب، كان لدي رغبة ملحة في الانتقام، مرت الأيام وأنا أقيم جردًا كل ليلة عن أسماء الشباب الذين يبدأ اسمهم بحرف E.

ثم أتتبع حساباتهم وأراقب تصرفاتهم بدقة، ذهبت في أحد الأيام إلى المعمل مبكرًا قبل بدء الحصة، واستطعت التخفي قدر الإمكان، حتى وجدت فتاة تضع ورقة أمام حوض جيداء في المعمل قبل حضورها..

www.idafabooks.com

في الحقيقة لم أفهم الأمر.. فتاة! لماذا فتاة؟! إن المستأجِر رخيص جدًا!

أمعنت النظر في وجه الفتاة.. لم أتذكر اسمها ولكني عرفتها.

ولكن في هذه اللحظة دخلت جيداء ورأت الفتاة وهي تضع لها الجواب، كما رأتني وأنا أنظر إليهما! وكان الموقف سخيفًا إلى حد أنّي تمنيت أن أقفز من النافذة في تلك اللحظة، فأنا بغبائي أثبت الجريمة على نفسي أكثر. فصارت تشك الآن أنني من استأجر تلك الفتاة، خصوصًا بعد مجيئي مبكرًا قبل الحصة.

شعرت بضيق شديد.. ولم يكن بيدي شيء أفعله، حاولت أن أبحث عن الفتاة ولكن حتى بعدما وجدت حسابها على فيسبوك لم أستطع أن أتوصل لهذا الشخص الذي يستأجرها.. تملّكني الضيق ولم يكن بوسعي الاعتذار لجيداء أو تصحيح موقفي فلا يوجد دليل..

مرت الأيام وحاولت أن أنسى أو أتناسى الموقِفَ برمته، كان خيال جيداء يطاردني في كل ركن من أركان الجامعة، لكنّي كنت أعلم أن الأمر صار مستحيلاً، وأن كل الأسباب تخبرني قطعيًا أن جيداء ليست سوى فتاة عابرة في حياتي.

www.idafabooks.com

مرّت الأيام بطيئة، كلما كنت أراها في المدرجات أو الـ section كنت أدير رأسي أو أنظر أرضًا، كنت أحاول أن أتناساها بكل الطرق..

عدت إلى المنزل في اليوم الرابع عشر بعد موقفها معي، وجدت رسالة من شخص مجهول ليس بصديق، فتحتها فوجدت المرسل Gidaa Al-Mallawany

توقف الزمن للحظات. ألقيت الهاتف من يدي على الأرض. قفزت من مكاني، تُرى هل هناك مصيبة جديدة؟! أم ستعترف لي بحبها الآن؟! اجلس يا أحمق.. وافتح الرسالة.

"أعتذر إليك جدًا عن ما حدث، لم أقل لك أن تكف عن إرسال الجوابات تكهّنًا مني، بل أخبرتني إحداهن أنك من ترسل لي، ولقد فهمت الأمر متأخرًا للأسف، من الواضح أنه فخ نُصِبَ لأحدنا، احذر.. وأعتذر بشدة"

لا أعلم تحديدًا ما الشعور الذي انتابني بعد قراءتي للرسالة، كان جزءًا منه راحة لأن أخيرًا جيداء عرفت حقيقتي وأنّي لست بهذا السوء الذي أرسل لها فيه جواب تملؤه كلمات رخيصة الثمن وأنا لا يجمعني بها سوى السلام أصلاً.

www.idafabooks.com

ثم شعرت بالقلق.. من السخيفة تلك التي أخبرتها أنّي من يضع الرسائل لها كل صباح؟!

على العموم الموقِف الذي ظننته شرًا انقلب خيرًا وكفى..

رددت على رسالة جيداء:

"لا داعي للاعتذار، لقد كنت أثق بنفسي ولكن للأسف لم أثق في الظروف التي تضعني دائمًا في صورة لا أتمناها، من فضلك أخبريني من الفتاة التي أخبرتك بهذا؟ وكيف عرفتِ أنه ليس أنا؟"

لم ترد طبعًا على رسالتي وأعتقد أنها كانت منشغلة.. مرت ساعة ثم ساعتين ثم ثلاث وكأنها ثلاثة أعوام وليست ساعات أبدًا، ثم انتصف الليل ولم ترد حتى الآن.. كان أطول يوم مرَّ علي في حياتي..

"يجب أن أعتذر، لقد كنت غليظة اللهجة شديدة القسوة، ومن الواضح أنّك شخص تستحق الاحترام، ولم أر منك سواه، فأتمنى أن يكون متبادلاً، لا داعي لذكر أسماء"

لم أغلق الهاتف ولو دقيقة طوال اليوم، حين سمعت رنة الرسالة جريت إلى الهاتف وأغلقت الباب بدون سبب منطقي وجلست في هدوء أقرأ رسالتها عشرات المرات، لا أصدق أن تلك

www.idafabooks.com

الكلمات التي أمامي هي من كتبها فعلاً، هل أنا أتحدث إلى جيداء فعلاً؟! هل هي على الطرف الآخر من الهاتف تكتب لي؟! لي أنا؟

"دكتورة جيداء من فضلك أخبريني من الفتاة.. هذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لي، ولا تقلقي فالاحترام ليس متبادلاً بالقدر نفسه لأنّي دائمًا أعطيك أكثر"

"دكتور إياد، أشكرك على ثقتك بي.. إنّها صديقة مقربة لي، رأيتها تتحدث معك عدة مرات.. لن أستطيع أن أقول أكثر.. لا أريد إحراجها".

لا أخفي عليكم خبرًا. عندما قرأت كلماتها (رأيتها تتحدث معك) ظننت الظنون أن جيداء تراقبني كما أراقبها.. وتمنيت أن يكون هذا حقيقة، ولو أنّي أعلم أني ربما أكون أتوّهم، لكن هذا التأويل يُرضي شيئًا في نفسي..

"شكرًا لكِ، وشكرًا لرقي أخلاقك.."

"تصبح على خير يا دكتور"

"تصبحين على خير يا جيداء"

لم أنس "دكتورة" لكن تعمّدت أن أزيل هذه الألقاب السخيفة.. إلى متى سأبني حواجز ليس لها وجود أصلاً؟!

www.idafabooks.com

لم يأتِ الصباح إلّا وأنا أعلم علم اليقين من تكون تلك الفتاة.. إنّها هالة، الآن تأكّدت أن هالة فعلاً تلعب الألاعيب لأكون لها، من ضمن ذلك أن تجعل صورتي سيئة أمام جميلة جميلات الدفعة كي لا أنظر لها ولا تنظر لي بعدما شكّت بالأمر.. فأرسلت إحدى صديقاتها لتضع الجواب لجيداء ثم ذهبت تخبرها أن أنا من يضع هذا. ومن الواضح أن تلك الرسائل كانت تمتلئ بالكلمات الخارجة.. كنت أراقب جيداء من بعيد وفعلاً أثبتت كلامي.. كانت في كل مرة تحاول هالة التقرّب منها ترفض بذوق شديد وترحل أو تنشغل في شيء آخر، ظلّت الأيام تمر ببطء، أراها كل يوم ولا نتحدث، لا شيء يحدث.. قررت أن أتهور وأرسلت لها طلب صداقة، وظللت أنظر للساعة، كانت الثواني تمر كالقرون لا الأعوام، إلى أن جاء الرد:

Gidaa accepted your friend request

أغلقت الهاتف ولم أرسل لها أي شيء، ووضعت رأسي على الوسادة وابتسمت ثم نمت وكأنّي حصلت على جائزة نوبل للسلام مثلاً.

مرّت الأيام وكان وجودها مثل عدمه. لم تكن ترى أي شيء أشاركه أو أكتبه إطلاقًا. اتضح أن علاقتها بمواقع التواصل الاجتماعي ليست قوية، وأنها تزور حسابها كل يوم مرة إن زارته أصلاً، وأن طلب الصداقة هذا كان سخيفًا ولم يكن ذا فائدة..

www.idafabooks.com

ولكن لا يضر، كانت تمر الأيام بطيئة جدًا، في أحد الأيام بينما أنا أغفو في المدرج كعادتي وقبل أن أغلق عيني، رأيت أحد زملائي الشباب يتحدث إلى جيداء بصوت منخفض، ثم أعطته قلمًا وسكتت، طار النوم من عيني وظللت أراقبهما طوال المحاضرة، كان كل عشر دقائق يلتفت وينظر لها، هذا الوغد.

كنت أريد حقًا أن أطير من مقعدي وأنزل فوق رأسه أحطمها، ولكن بأي صفة؟ فأنا لا أعني لجيداء شيئًا، احترقت في هذا اليوم وصرت أخشى أن يتكرر الموقف، أو أن يأتي من يخطفها مني. ولكن.. ماذا أفعل؟! لا يمكنني أن أصارحها بأي شيء، ما زلت في عامي الثاني في الجامعة ولا أمتلك حتى ثمن فستان لها.

مر الوقت ومرت الأيام حتى يوم نتيجة نهاية العام.. كان يومًا بهيًّا، وبالرغم من أني حرف الألف أي قبل جيداء، إلّا أني وجدت نفسي أرى نتيجتها قبلي، سعدت جدًا بنجاحها كأن أنا من نجح، وانتهى اليوم جميلاً، فوجئت.. أو لم أفاجأ الحقيقة.. بحصولي على الامتياز مثل العام الماضي تمامًا كذلك بهي الدين ومجموعة قليلة من الزملاء..

في الحقيقة لست من الشخصيات الاجتماعية التي تتصل بكل العالم تخبرهم بالنتيجة، ولا أكتبها على صفحتي ولا شيء.. وبالرغم من ذلك، بمجرد أن غفوت في المساء بدأ المغص يطاردني لا

www.idafabooks.com

أستطيع النوم، وبعد قليل بدأت أشعر بالحرارة وألم شديد، أيقظت أبي في الحال وأخبرته عن الأعراض وأنّي أشك أنها أعراض زائدة.

هرع إلى السيارة وجهّزت أمي حقيبة ملابس وذهبنا فورًا لأقرب مستشفى، وبالفعل كان ظنّي في محله، في الصباح الباكر كنت على باب غرفة العمليات.. كان يومًا لن أنساه طوال حياتي، إنها المرة الأولى التي أتعرض فيها لمثل هذا النوع من الابتلاءات، أنا صيدلي فعلاً ولكن لم أتخيل أن أكون أنا على سرير العمليات، كان الكل يدعون لي أن أخرج من العملية سليمًا، وبرغم بساطتها إلّا أنّي كنت قلقًا جدًا، شعرت كم هي الحياة بسيطة، يمكن أن تذهب في غضون ثوان لا أكثر، كنت نائمًا في بيتي في سريري فأصبحت في سرير المستشفى البارد.

استفقت من البنج على ألم قاتل في مكان الجرح، لم أكن أتخيل أن الأمر بهذا السوء، الآن عذرت كل الأمهات اللاتي تعرّضن لألم الولادة القيصرية، فهذا الجرح البسيط كان لا يجعلني أنام الليل، ما بالك بهن.

مرّ اليوم الأول بين زيارات أقاربي وبعض أصدقائي، كان وائل أولهم، في الحقيقة وائل لم يكن زائرًا، لقد رافقنا طوال الليل في المستشفى، بمجرد أن اتصلت به قبل أن أذهب إلى الطوارئ جاء

www.idafabooks.com

أسرع من البرق وأمضى الليل بالكامل بجواري حتّى نام على الأريكة..

في صباح اليوم الثاني استيقظت في المستشفى على صوت الدكتور يقول لي "اليوم بإذن الله ستخرج، سنتابع حالتك إلى المساء لنرى إذا كان بوسعنا إعطاؤك تصريح الخروج، لا تقلق كل شيء سيكون بخير بإذن الله".

بعد خروج الطبيب ببضع دقائق سمعت أصواتًا مختلطة بين نساء ورجال ثم طرق أحدهم الباب طرقتين وتمهّل ثم مرة أخرى، ثم فُتِحَ الباب، إذا بجميلة الجميلات جيداء تنير الغرفة، أقسمُ بمن أُحلَ به القسمُ.. شُفيتُ في تلك اللحظة.. ظللت أنظر لها طويلاً، حتى أنها كانت تسألني عن حالي بابتسامتها الخلّابة ولا أجيب، كنت في حالة صدمة، لم أتوقع أن أراها في منتصف الصيف بدون مقدمات، كنت أفتقدها كثيرًا.. والله هان الألم إن كان هو السبب في زيارتها لي.

دخل بعدها بهي الدين وهالة وشيماء والعديد من الأصدقاء ولم أر أيًا منهم، لقد كنت أراها هي فقط في الغرفة وكأن لا أحد سواها موجود أصلاً.

جيداء: "كيف حالك اليوم؟"

www.idafabooks.com

إياد: "هه..؟ .. أنا؟.. في أحسن حال"

جيداء: "هل هذا هو أحسن حال؟"

إياد: "بالطبع.."

كنت أريد أن أقول لها "لن أكون في حال أفضل من حالي في حضورك" لكن عجزت.

جيداء: "حسنًا، حمدًا لله على سلامتك، لقد أقلقتنا جميعًا"

إياد: "سعيد برؤيتك جدًا يا جيداء"

جيداء: "إنّه أنا السعيدة يا إياد"

كانت المرة الاولى التي أسمع فيها اسمي منذ يوم جئت الدنيا، كانت تقول "إياد" فأسمعها أنغامًا وتغريدًا، دو ري مي فا.. طرب.. عذب.. جمال..

وضعت بجواري بوكيه من الورد الأحمر الخالص وقالت إنهم اشتركوا فيه، لكن في الحقيقة لم يهمني هذا.. فالمهم أنها وضعت فيه ولو ملّيمًا، المهم أنها من أمسك به وأن عطرها لا زال فيه، يهمني أنه أول تذكار منها.. بعد نصف ساعة استأذنت جيداء للرحيل لسبب مجهول، قالت لي "نراك على خير بإذن الله" ورحلت..

www.idafabooks.com

وددت لو أسجل حروف كلماتها بذلك الصوت وأجعله رنة منبّهي مثلاً أستيقظ عليه في كل يوم.. إنّها المبالغة المشروعة بحق عيّنها.

كانت المرة الأولى التي أكتشف فيها أن التطرف في الحب حلال في كل مذاهب العاشقين، ومسلك المتهالكة أرواحهم في أشخاص عبروا بجوارنا ولم يمرّوا مرور الكرام بل بقوا فينا وبقي الأثر يزداد يومًا بعد يوم، وكأنهم يسيرون حفاة، لا يرتدون التحفّظ، يسيرون بين طيّات القلب يتركون في كل ركن فيه من العلامات أُلُف، كم تمنيت أنه مهما دار الزمن لا يكون لهم عنّا من كاشفة.

مرّت الأيام وعدت للمنزل، اكتشفت أن الحب فقط.. يستطيع أن يشفي ما لا تستطيعه العقاقير.

ظلَّت الزهور الحمراء برغم ذبولها في درج المكتب الأخير مغلق عليها بمفتاح وقفل..

بعد فترة فوجِئتُ برقم هاتف غريب يتصل بي، عندما رفعت الهاتف على أذني فوجئت بصوت جيداء، كان من السهل عليّ أن أميّز هذا الصوت، سألَت عن حالي بعد الجراحة وأخبرتها أني بخير وكانت مكالمة أشبه بالمجاملة، لم أسأل نفسي لثانية من أين حصلت على رقمي؟ ولم أكلف نفسي بمعرفة إذا ما كانت تتصل من هاتفها أم لا.. ولكنّي أصبت في هذه المكالمة بنوبة من إحساس التجرّع حد الثمالة، كما أن تكون في عالم آخر بين الواقع وضروب

www.idafabooks.com

الجنون، تنظر لمن حولك بعين نصف مغلقة وشفاه باسمة، تترنح رأسك يمينًا ويسارًا ببطء، تسير مكفوف البصر مغضوض السمع، لا تسمع سوى سريان دمائك بعروقك، تتنفس الصعداء وتخرج الذفير تنهّدًا بهدوء، كل شيء حولك يسير ببطء شديد حتى أقدامك، ترى الأناس ضبابًا وتدرك أصواتهم تهامس مهما ارتفعت، يثقل لسانك ولا يصف شيئًا، تفقد الإحساس بكل ما حولك وينطفئ المنطق فيك وينعدم الإدراك.. كل هذا حدث وأكثر في أول مكالمة هاتفية بيننا.. كل هذا حدث عندما سمعت صوتها تتنهّد على طرف الهاتف الآخر.. وظللت في هذه الحالة لساعات حتى بعدما أغلقت الهاتف.. لا تصدق من يقول لك إن الحب أعمى.. إن الحب ينقلك إلى درجات عُليا من الخيال والهُيام، إلى عالم آخر غير عالمنا، في عالم المحبين كل شيء جائز وكل شيء مقبول، إنه العالم الوحيد الذي يهوّن علينا قسوة الواقع.. إنه الجانب المشرق في كل ظلام وكل ليل، إن الحب هو السحر الأبيض.. الذي يحوّل كل ألم إلى شفاء وكل ضيق إلى مُتَّسع، يغض الطرف عن الأحزان ويعيدك إلى مراتب الشغف مرة أخرى.. لذلك يقولون إنه أعمى.. ولكن العمى الحقيقي هو أن تدرك حقيقة النور وتفضّل أن تغلق عينيك.. أن تفضِّل العيش مُتأرجحًا بين المخاوف والشكوك والحسابات على أن تعيش ببساطة وتلقائية في حب صادق خوفًا من أن يصيبك عماه.. ولكن قد أصِبتَ بالعمى فعلاً حين حاربت مشاعرك وأهلكت نفسك

www.idafabooks.com

واستهلكت طاقتك في تلك الحرب.. لا أدري ما حقيقة النفس البشرية التي تأبى الوصول لمرحلة الهيام في الحب.. حقيقة النفس البشرية التي تبدأ في الثورة على الذات إذا تخطت مرحلة الإعجاب إلى العشق، لقد لوَّث البعض صورة درجات الحب العُلا بأنهم وصفوها بالـ (عبودية)، بل وصوّروا الانتماء لذات أخرى على أنّها مذلة، رغم أن الانتماء عين الحرية، فهل الاتّكاء على المخادع ضعف؟ لا، إنه الراحة ومَتن الأمان.. فإن الاتكاء على حبيبِ راحة، وليست أبدًا مذلة أو عبودية.. ليس كما صوّرها بعض المُشككين في طبيعة المعاني الإنسانية..

نقطة نهاية ومن بداية سطر جديد ..

كل هذا لا ينطبق إلّا على حب صادق حقيقي.. نابع من صميم الروح لا العقل ولا العين ولا حتّى هوى القلب..

كأن أرواحكم تقابلت في عوالم أخرى قبل أن تجيء إلى الدنيا، أو ربما تتسامر كل ليلة وأنتم نيام وتتعانق حتّى الصحو.. ربما الدنيا هي دار العوازل والمنام إطلاق الأرواح إلى عوالم اللا قيود..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل السادس

استفقت من أحلام اليقظة كالعادة، وتذكرت أمر درج المكتب.. قمت إليه بكل عزمي ووجدت المفتاح على المكتب نفسه، فتحته.. ولكن.. لم أجد شيئًا، توقعت أن أجد فيه باقة الزهور الحمراء، أنا أتذكر أني لم أغير مكانها، لكن لم تكن موجودة..

فتحت مذكّراتي وظللت أقلب الصفحات إلى أن وصلت إلى تاريخ عودتي من المستشفى بعد عملية الزائدة على أمل أن أجد أي نص كتبت فيه أي شيء.

وبالفعل..

www.idafabooks.com

"أنا لا أجيد الحديث وأحيانًا أسترسل إلى أن تضيع المعاني، وربما يضيق الكلام حتّى تختنق الحروف بلا مُتَّسَع، أفشل تكرارًا ومرارًا في وصف الشعور، وكأن المشاعر طير أسير في قفص صدري تختلج فيه، إن قلبي تمامًا كالبركان الثائر، أعماقه تفور بدموع الشوق والمحبة، لكن فوّهته ضيّقة لا تُخرِج شيئًا، وبالرغم من أنّي لا أجيد الوصف.. ولا الاسترسال في التعبير، لكنّي أجيد الحب على التلفُّظِ به.."

ظللت أقلّب في الكتاب الأزرق وراقت لي الكلمات جدًا، كانت تنعش ذاكرتي وتلعب على أوتار قلبي.. كنت أقلّب الصفحات في الكتاب..

"إنّها المرة الأولى التي أدرك فيها معنى الاختصار، أن تُختَصرُ الأشياء..

أن يختصر الحبيب الماضي والحاضر في ذاته، والسعاده في ابتسامة، والحب في عينين، وإن لم يكن هذا حبًا.. فما الحب إذًا؟!! إن الحب يبعدنا تمامًا عن الواقع، يحملنا إلى زمكان آخر، حيث لا وجود للزمان ولا المكان، حيث لا كيان ولا كينونة، إن الحب فعلاً أكبر من أن يقال فيه "منه ما قتل، يصنع المعجزات".

إن للعشق طاقة إذا سرت في قلبك جاءت قبلك تجرّك جرًا إلى الحياة، تجعلك قادرًا على المواجهة والتحدّي، إن الحب يظل أقوى

www.idafabooks.com

دوافع الحياة بلا منازع، كما له قدسيته ووقاره، تأكدّت اليوم أن من عرفوا معناه في حياتهم هم قِلَّة، فبعض المشاعر لا ندركها إلّا بعد أن نخوضها، فأنت لا تتخيل حلاوة السكر إذا لم تذقه مهما وصفته لك.

كذلك الحب لا ندركه ولا نحصي أبعاده إلّا بعد أن نخوضه بكل ما أوتينا من مشاعر، نندفع فيه بلا حسابات بلا جداول بلا أسماء، فحين نحب فعلاً لا ندرك أننا أحببنا، ولكن نرى ذلك، نراه في تصرُّف، شغف، سعادة.. نراه في كل شيء، حتّى ترى حبيبتك في كل مرآة تنظر فيها إلى نفسك.. حين تكون نصف سعادة الدنيا في ابتسامتها والنصف الآخر في سعادتها ذاتها، أن لا تُجيد الوصف، لكن تجيد الشعور.. وأجمل ما قيل في حبيبٍ (يضيق الفضاء بضيقه ويتّسعُ المضيق إذا ابتسم)"

❊ ❊ ❊

يبدو أنني كنت أحب الكتابة.. وكيف لا أحبها وهي الشيء الوحيد الذي كان يُخرِج إحساسي بجيداء.. عدت إلى سريري وسرحت بخيالي، ما زالت الألغاز تطاردني، أحاول أن أتذكر ما أمر باقة الورد هذه التي لا أجدها..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

بدأ العام الثالث لنا في الجامعة، مضى عام على معرفتي بجيداء، ثلاثمائة خمسة وستون يومًا بالتمام والكمال، ثمانية آلاف وسبعمائة وستون ساعة، نصف مليون وخمسة وعشرون ألفًا وستمائة دقيقة، إحدى وثلاثون مليون وخمسمائة ستة وثلاثون ألف ثانية أحببت فيهم جيداء، ابتسمت ما إن رأيتها تدخل المدرج وخفق قلبي حتى كاد يخرج من مكانه ويطير إليها.. بدأ العام لطيفًا فقد تبادلنا الكثير من السلام والابتسامات وأحيانًا الأقلام بل وأنابيب الاختبار أيضا بدون أن أكسرها أخيرًا.. كانت إذا غابت أرسل لها رسالة على messenger أسأل عن حالها وإذا تغيّبتُ أنا تسأل هي كذلك..

"جيداء، لم أركِ اليوم إطلاقًا هل أنت بخير؟"

"شكرًا للسؤال، لا تقلق أنا بخير ولكن على سفر"

"عودة سالمة إن شاء الله، إلى أين؟"

"دبي"

"عظيم، جميلة دبي"

"نعم سأعود قريبًا"

"ولكن لماذا دبي؟"

www.idafabooks.com

"أنا أعيش هناك"

خفق قلبي كما لم يخفق قبل، تعيش هناك، ما معنى هذا؟! تعيش هناك وتدرس هنا؟!!

"كيف؟"

"والدي يعمل هناك، وأعيش معه منذ زمن ولكن نزلت إلى مصر مع والدتي للدراسة"

"عودة سالمة إن شاء الله"

انتابني الكثير من القلق في هذا اليوم، كان خبرًا حزينًا، ولكن الآن فهمت لماذا جاءت جيداء في العام الثاني وليس الأول، ربما لم تستطع والدتها ترك الأسرة في العام الأول والنزول إلى مصر فكانوا يعيشون هناك إلى أن جاءت الفرصة، أو ربما والدتها تعمل هنا.. على كل حال.. الأمر مقلق جدًا..

تقرّبت إلى جيداء بالحديث رويدًا رويدًا على مدار العام، تبادلنا الأذواق والسؤال والسلام والكلام، أذكر هذا اليوم الذي سألتها فيه لو توافق أن نشرب القهوة سويًا فأجابتني أنها لا تشرب القهوة.. كانت لحظة محرجة للغاية، ثم ضحكَت وقالت: "يمكننا أن نشرب الماء"

www.idafabooks.com

فضحكتُ أنا أيضًا وطلبت لها شايًا، وجلسنا نتبادل أطراف الكلام طويلاً..

في كل مرة جالستُ جيداء نتبادل أطراف الحديث، كنت أشعر فائض المشاعر أكبر من احتمالي، في الغالب لم أكن آبه لحديثنا بالقدر الذي تدور به الأحاديث في ذاتي، قلت لها في كل ثانية "ليتك تسمعين أفكاري وخواطري ونبض قلبي الكامن بين أضلعي" كنت أريدها أن تستمع لكل ما لم أقُله ولم أبح به، أردتها أن تستمع لصمتي بكل إصغاء لتدرك تردد أصوات الأرواح.. إن أجمل كلام الحب هو ما لم تسعه الحروف، حقيقة وواقعًا ما لا يقال يُقرأ فيما لا يُكتَب وأن كل ما أردنا أنا نقوله هو الجزء المحذوف من النص..

فيُعرَف الحب بالنبض النابع من أركان القلب ركنًا ركنًا، في تهامس الأرواح ولو كان بينهم أجساد وبلاد، في نظرة، في لحظة اشتياق غلبت فيها الدموع كل المعاني والكلمات.. الحب الحقيقي هو كل كلمة لم نقلها وكل نظرة غضضناها وكل دمعة شوق حُبِست.. الحب الحقيقي هو كل ما منعناه أن ينطلق.. خوفاً من الضعف.. لا أخفي عليكم أن هناك لحظات يعيش المرء فيها العمر كله، إن هناك أشخاصًا بذلنا من أجلهم مشاعر أكبر من التي نمتلكها أصلاً، اعتصرت قلوبنا حتّى أشفق عليها الدهر والأنام والناس أجمعين، اعتصرت لهم حبًا بل وشوقًا أملاً أن يميل لنا

www.idafabooks.com

طرفهم.. وتمر الأيام، أخطأ من ظن أن بداية حبي لها كان في أول نظرة، إن جيداء هي قصتي التي ليس لها بداية، فالحب شيء أزلي ليس له بداية وربما ليس له نهاية، وإن طافت الظروف ودارت لا يمكنك مهما فعلت أن تنتزع الحب الأول من قلوب العاشقين خاصةً وإن كان هذا الحب حقيقيًا، يلتبس على الناس دائمًا الأمر، فمنهم من يظن تعلّقه بفلان حبًا ومن يظن أن جمال فلانة حبًا ومن تظن أن أموال فلان حبًا، تختلف الأسباب ويتفق الغرض.. الغرض هو البحث في كل شخص عن صفة تحتاجها نفسك بشدة، فمن تفتقد للأمان ستحب أول من يهتم بها، ومن يفتقد الثقة سيحب أول من تمنحه إياها، ومن يتفقد الرجولة سيحب أول من تطأطئ رأسها له ومن يفتقد احترام الغير له سيحب أول من تحترمه، تختلف أيضًا الأسباب ويظل هناك دائمًا أسباب لتبرير الحب، أما أنا، فليس لدي أسباب، كنت أظن في بداية الأمر أن جمالها هو من جرّ قلبي إليها جرًا لكنّي كنت مخطئًا بشدة، رأيتها في أسوأ حالتها وفي أيام الاختبارات وغيرها والكثير من الأيام التي لم تهتم فيها بمظهرها لثانية قبل خروجها من المنزل ولم ينقص من حبي لها مقدار حبة من خردل، أحببتها قبل أن تُسمعني من الكلمات جميلها، قبل أن تبادلني اهتمامي بها، أحببتها قبل كل سبب يمكن أن يبرر الحب..

www.idafabooks.com

كلما كانت تمر الأيام كنت أتأكد أن الحب لا يُستنفذ وأنه الطاقة الوحيدة التي تتجدد من العدم، كلما أصبحت علينا الشمس تستيقظ القلوب بحب جديد تشعّه طوال اليوم، تأكّدت اليوم أن أشقى القلوب ليست التي لم تجد عشيقًا، بل القلوب الخَرِبة، التي لا تستطيع أن تحب أصلاً.. التي لا يتولّد بداخلها مشاعر تجاه المحيطين بها، التي لا تبكي مدامعها أبدًا ولا تهزّها المؤثرات ولا المشاعر، خراب القلوب لا يسعى فقط هدمًا في قلوب الغير، بل قد يرقى حد العباد والبلاد أيضًا..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

جرت الأحداث سريعًا على غير العادة وكنت أزداد قربًا من جيداء يومًا بعد يوم.. لم تبادلني سوى الاحترام والتقدير والتحفيز، كانت أرق من أي شيء وكل شيء، كنت أنتظر بفارغ الصبر وقت الفراغ الذي يجمع حديثنا أينما ووقت ما وُجِد، وكنت ممتنًا جدًا لكل شارع وكل مبنى وكل طابق وكل صالة جمعتنا يومًا، كنت ممتنًا جدًا لكل الساعات والدقائق والأزمنة التي سمحت لي ولها بأن نكون سويًا، كنت حتى ممتنًا لهذا الكون الذي جمعنا على أرضه في نفس المكان دونًا عن الأرض كلها، وقبل كل شيء، كنت شاكرًا لمن وهبني الظروف حتّى كانت جيداء جزءًا لا يتجزّأ من صحوَتي ومنامي..

ازدادت معرفتي بجيداء كثيرًا، عرفت عن حياتها الشخصية أكثر من أقرب من لها، جيداء ولدت في دبي وكانت تتردد على مصر كل عام وبالرغم من ذلك فإنها لم تتأثر إطلاقًا باللهجة، كانت تحتفظ بكلماتها المصرية وكأنها تعيش تمامًا هنا، حتّى أنّي لم أشك لثوان أنها لم تولد بمصر أو أنها تربّت في مدارس أخرى غيرنا، كان وما زال والدها طبيبًا بأحد المستشفيات هناك وتم تثبيته من سنوات ولا يحب أن يغادر المكان، كما أن والدتها أيضًا طبيبة ولكنها تتردد على عيادتها في مصر لعدة أشهر كل عام، فهمت لاحقًا أن والدتها صاحبة مبدأ ورسالة وأن ثمن كشفها لا يتجاوز الثمن الضئيل، كانت تذهب إلى دبي لتوفّر المال الكافي ثم تنزل إلى عيادتها في مصر تفتحها أمام الفقراء والأيتام والأرامل وغيرهم مِن مَن

www.idafabooks.com

يستحق هذا التخفيض الهائل في الكشوفات، تقول لي جيداء إن والدتها دائمًا تقول "لا فائدة من العمل إذا كان كل ما نجنيه منه هو المال" وأنها رددت على مسامع جيداء الطفلة أن أي وظيفة يمكن أن تحمل بُعدًا إنسانيًا ولكن البشر دائمًا يفضلون المادة على المعنى، تربَّت جيداء في منزل يعرف تقاليد الدين والعلم، لم أجد يومًا في ملابسها ما يخدش الحياء أو يكسر الوقار أو يلفت أنظار المريضة أعينهم، كنت أجدها مثالاً وقدوة لا أتمنى لأولادي خيرًا منها، كانت من الفتيات القِلّة اللاتي أجدهن يقمن الصلاة إذا حلَّ وقتها، كنت أكتشف مع مرور الوقت أن لا زالت هناك فرصة في الحياة لإيجاد مثل هذه الشخصيات المثالية، بالرغم من قلقي الدائم من أن يكون هناك جزء مخيف متخفٍّ من شخصيتها ولكنّي كنت مطمئنًا لما ظهر لي منها، كنت أراها الفتاة المثالية في كل شيء والتي تستحق أن يأتيها الرجال حبوًا إلى عقر دارها يلتمسون إلى يدها السبيل، ولكنّها كانت أكثر تواضعًا من أن تتخيل نفسها في هذا الموقع من الإعراب، كانت جيداء توافقني الرأي في كل شيء تقريبًا وكان هذا محل قلق أيضًا، بالرغم من كونه شيئًا عظيمًا ومطمئنًا ولكنّي بطبعي شخص قلوق كثير التحليل والتفكير، كنت أفكّر هل توافقني الرأي ظاهريًا فقط لأنها ربما تكون تبادلني المحبة، أو أنها فعلاً تفكّر مثلي وتحققت المعجزة أخيرًا ووجدت شخصًا يفكر بعقلي تمامًا، كنت عاجزًا عن حل هذا اللغز..

www.idafabooks.com

حتى حدث ما كنت أخشاه واختلفنا، في إحدى الليلات نشب بيني وبين جيداء حريق حيث كانت تحاول إقناعي أن عصير اليوسفي أكثر حلاوة من عصير البرتقال، ولكنّي أصررت على موقفي أن عصير البرتقال أفضل.. حسنًا.. هو شيء تافه ولكننا لم نختلف أكثر من ذلك..

على العموم ازددت معرفة بجيداء واكتشفت أن لديها أختًا صغيرة فقط، وأنها تعيش في مصر مع والدتها وتعيش أختها مع والدها وتلتقي الأسرة في الإجازات وفي بعض من الصيف، كنت أدعوها من وقت لآخر لحضور مباريات التنس الخاصة بي، كانت أكثر من يدفعني في الرياضة حيث إنّها قالت لي ذلك أنها تقدّر جدًا الشخصيات الرياضية وأن طول عمرها كانت تتمنى لو ترتبط بشاب رياضي، بعض المباريات التي كانت تحضرها جيداء مع الزملاء والزميلات، كنت أنزل فيها خصمًا لبهي الدين، كنت أشعر بالغيرة الشديدة من أن تجلس هي على المدرّج تشاهده وهو يلعب أيضًا، كنت أريد أن أظل أنا فقط في عينيها لا ترى غيري مهما كان.. مر العام على هذه الوتيرة حتّى بِتُ أعرف عن جيداء أكثر مِما تمنيت أن أعرف.. ولكن ظل التساؤل يضرب الحيرة في خاطري!.. لماذا تلك اللحظة تحديداً وقع حبها في قلبي.. لماذا النظرة الاولى.. كنت اقول ربما لو قابلتها في زمن آخر و مكان آخر بمشاعر أخرى.

و الله لأحببتها أيضاً.

www.idafabooks.com

في يوم نتيجة نهاية العام للعام الثالث كان مِن المشجع جدًا لي أنّي ما زلت أحصل على تقدير امتياز مثل كل عام، كنت أشعر بالإنجاز وكنت أضع التعيين في الجامعة نصب عيني دائمًا، كنت أشعر مثل ما كانت تقول جيداء أن إيصال الرسالة أسمى من المال، كما كنت أشعر أن هذا أكثر أمانًا لي وأكثر استقرارًا ودافعًا جيدًا لكي أكمل مسيرة حبي للكيمياء في الماجيستير ورسالة الدكتوراه، اتفقنا في عَشية اليوم الذي عرفت فيه الدفعة نتيجتنا أن نجتمع في حفل بمكتبة الإسكندرية احتفالاً منّا بمرور ٦٠% من سنوات الجامعة وبنجاحنا فيما مضى، كان حفلاً لأحد الفنانين المشهورين وكانت أمسية شاعرية جدًا، إنها المرة الأولى التي أرى فيها جيداء ترتدي فستانًا لامعًا، في الحقيقة لم يزد شيء من جمالها لأن صورتها في عيني لا تتغير أبدًا، لكنّي كنت أشعر أيضًا بالغيرة من عيون المارة، كنت أريد في هذه اللحظة أن آخذ جيداء بكل ما فيها أخبئها في قلبي، أخبئها في ذاتي وفي نفسي لا يستطيع أحد أن يميزها عنّي أن تكون بداخلي لا تُرى ولا يشعر بوجودها في الكون سواي، كنت أعلم أنها قمة اللا عدل وقمة الأنانية ولكنّ جيداء لم تكن من العامة، كانت من أخَص خاصتي.. لم تكن الألحان والكلمات طوال الحفل تمر بأذني، كانت تمر بقلبي مر السهم من الرمية، كانت المرة الأولى التي أدرك فيها أن كلمات القصائد والأغنيات أكثر ركاكة وضعفًا من أن تصف مكنون القلوب الصادقة في عشقها.

www.idafabooks.com

شهور نهاية وبداية الصيف من أفضل الشهور وأحبّها إلى قلبي، الأجمل جوًا والأطيب ريحًا والأكثر نقاءً، اعتدت أن ألقي ظهري إلى أرض الشرفة وأظل أراقب السماء في وقت السَحَر، دوّنت ما دوّنت.

"الثالثة والنصف فجرًا.. حان وقت الإلهام واجتمع الملهمون.. نجوم تغطي السماء وقمر يلمع وهواء بارد يداعب الأشياء.. لا ضوضاء ولا خلافات ولا نقاشات ولا أحد أصلاً..

باستطاعتك أن تلقي ظهرك على أرض شرفتك تتأمل هدوء السماء وبريق النجوم..

يهدأ الناس وتنخفض الأصوات ليرتفع ضجيج أفكارك..

إذا استطعت أن تسيطر عليها ملكت راحتك، وإن لم تستطع ملكتك..

تتأمل ما حولك.. تنظر إلى النجوم وكأنما تنظر إلى قطعة من الماضي..

تتذكر الأشخاص والأحداث وما مضى.. يمر أمام عينك شريط من الذكريات كل ليلة..

تختنق وتختلج الأنفاس في صدرك..

www.idafabooks.com

وسرعان ما تبتسم ثم تقرر ألا تفكر مرة أخرى..

أحيانًا التفكير غير مُجدٍ..

سبتمبر.. الملهم القاتل.."

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل السابع

محاولات أصدقائي في إنعاش ما تبقى من عقلي لا تهدأ ولا تنطفئ، اجتمعت بالعديد منهم في عدة مقاهي وللأسف لم أتذكر المتأخرين منهم الذين عرفتهم في العام الأخير قبل الحادث، لم أكن أنا من يرتب المقابلات أو يتصل بهم بل كنت أجلس في مقهى محدد وأنتظرهم يأتون إليّ بموعد مسبَق مع وائل أو أمي، لقد كان اللقاء الأخير منهم غير مُتوقَّع بالمرة..

www.idafabooks.com

لقد كان اللقاء الأخير مع جيداء.. بل ما أتذكر عن جيداء، وللأسف لأني لا أذكر أحداث العام الماضي أنا لا أعلم ما آلت إليه علاقتنا فيه، لذلك لم أستطع أن أكثر من الأسئلة أو أستفيض في الحديث، جلست جيداء أمامي بابتسامة شديدة الغموض، نظرت كثيرًا إلى عينيها حتى استحت هي واستدارت، كانت تصر كثيرًا على الجلوس بعيدًا عن النافذة والزحام ولم أدرِ ما السبب.. وأخبرتني أنها لن تستطيع أن تجلس معي أكثر من عشر دقائق وأنها تفعل ذلك فقط لأن حالتي إنسانية ولا يمكنها تركي في موقِف مثل هذا، كان كلامها جافًا جدًا وصادمًا، وعلى ما أذكره من علاقتي بها هذه ليست جيداء التي أعرفها، دارت بعقلي الظنون أن تكون جيداء تغيرت بعد معرفتها بأمر الحادث وأنّي فقدت الذاكرة.. لم يستطع عقلي تفسير أسلوبها شديد اللهجة إلّا أن العِلة ليست في الأشخاص، بل في الصور التي نرسمها لهم، في سقف توقعاتنا الذي لطالما نضعه عاليًا، فإذا هوى ظننا أننا لم نحسن الاختيار، ولكننا أحسنّا، وأجدنا اختيار الارتفاع المناسب للسقف حيث إذا هوى منه دك كل ما فينا فُتاتًا فُتاتًا.. لم أكن أتخيل ولو للحظة أن تكون جيداء من هذا النوع من الفتيات، أن تكون تلك الصفات الملائكية التي رأيتها فيها طوال الأعوام الماضية ما هي إلّا كذبة وعِشتها أنا بكل صدق.

www.idafabooks.com

توقف الزمن بي للحظة لا أدري ماذا يحدث.. لم أحاول الدخول في تفاصيل، بعد القليل من الكلمات السطحية جدًا نظرت لي جيداء نظرة مخيفة طويلة ثم ظهرت في عينيها شعيرات دموية حمراء وقطرة من الدموع.. حبستها سريعًا وقامت ممسكة بحقيبتها عازمة الرحيل، خاتمة كلامها بكلمة "أراك بخير".. فإذا بالكارثة تتجلى أمام عيني، إذا بدبلة ذهبية تتجلى مثل الشمس في يدها اليمنى..

صرخت في وسط المقهى بأعلى صوتي..

"جيداء.. لن ترحلي.. صبرًا.."

فالتفتت إلي وعيناها تمتلئان بالدموع وخدها يشهد، قائلة..

"تذكّر.. تذكّر فقط، ثم ستفهم كل شيء"

عدت إلى المنزل مهرولاً هَلِعًا، جريت إلى غرفتي، رششت كل العطور في الجو، فتحت الكتاب الأزرق أقرأ منه، كنت في حالة من التوتر لم أصل لها قبلاً، أخرجت كل ملابسي القديمة من الدولاب، حاولت بشتى الطرق أن أنعش ذاكرتي، ولكن توتري غلب كل مراكز الأحساس في جسدي، فمن شدة القلق والذعر والتوتر لم أستطع أن أتذكر أي شيء إطلاقًا، انتابني الصداع وهاجمتني نوباته.. ألقيت ظهري على السرير وأمسكت بجسدي كله مثل الطفل النائم

www.idafabooks.com

وظللت أبكي، وكأن بكائي ينعش بداخلي شيئًا آخر.. هذه المرة ليست ذكريات الحب التي تستيقظ، ولكنها ذكريات الألم، هذا كل ما كنت أخشاه، ذكريات الألم التي تعود تقلّب عليّ مرارة الماضي..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

أبي، أبي، استيقظ، الإفطار جاهز..

أبي

والدي العزيز، لم أكن أعلم أن نومك ثقيل هكذا

أبي..

ظللت أتحسس أنفاسه بيدي كانت ضعيفة جدًا، أضعف حتى من أن أدركها!

أمي.. يبدو أن لديّ خبر مخيف..

- ما الأمر؟!!

لا أستطيع إيقاظ أبي.

هرعت أمي مهرولة إلى غرفته.

- أحمد، استيقظ، ماذا بك؟

- أحمد أنا أعلم أن نومك ثقيل جدًا، استيقظ فقد أعددت الغداء..

ظلّت أمي تنظر لي وعلى وجهها علامات تملأ الأرض خوفًا وعجبًا.

www.idafabooks.com

اقتربت من أنفاسه.. ولكن.. لم أجد أي استجابة، حاولنا رفع يده مرات ومرات، دفعناه إلى أقصى السرير وأوله ولا شيء، لا استجابة..

وقفت أمي وقفة مفاجئة.. وقالت: "إنا لله وإنّا إليه راجعون"..

توقف الزمن.. توقفت الدنيا، توقف الحياة بأكملها.. نظرت إلى أمي وقلت لها "لا، أنا أعلم أن هذا ليس حقيقيًا، صدقيني، لدي يقين يقول لي إنه على قيد الحياة، اتصلي بالإسعاف، هيا اتصلي"

ظلّت أمي تحاول أن تهدئ عصبيتي وخوفي، كنت أتساءل كيف هذا الثبات؟! كيف هي ثابتة إلى هذا الحد؟ كيف تقبّلت الأمر؟! كيف وأنا كل عصب في جسدي منهار؟ كيف تقف هي تنظر إليه وهو جسد هامد ولا تذرف دمعة واحدة؟!

استندت إلى الحائط بجسدي كله، ضممت نفسي بذراعي، ومرّت الدقائق كسنوات من الصمت الطويل، كنت كالتمثال الجامد في حين كانت أمي تترجّل في المنزل ممسكة بالهاتف تجري اتصالات لم أدرِ بمن، كانت الصدمة أكبر من أن تُحزنني، كانت أكبر من أن أصفها بكلمات.

كانت المفاجئة تجعلني لا أصدق.. أُنكِر بكل ما يمكنني إنكاره أن أكون مستيقظًا، ربما أنا نائم وسأصحو بعد قليل.

www.idafabooks.com

ربما أنا أتوهّم، ربما هو أصلاً نائم وأنا وأمي لم نشخص الحالة بالطريقة الصحيحة، أو ربما هذه هي الحقيقة، ربما هناك فارق بين الأمل وإنكار الواقع، ربما..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

فزعت من سريري، جريت إلى أمي..

أمي.. لقد تذكرت شيئًا.. أمي أرجوكِ أخبريني أنّي في حلم وأن أبي مسافر في الخليج كالعادة.. أمي.. هل..؟

"لقد تطوَّرت حالتك كثيرًا بني، من الواضح أنك بدأت تتذكر أحداث العام الأخير.."

في الواقع كنت عالقًا، أنا الآن أتذكر فقط هذا اليوم ولا يمكنني أن أتذكر ما بعده لأنّي في حالة نفسية سيئة، لذلك لا أستطيع أن أتذكر كيف تجاوزت خبر وفاته.. إنها ليست المرة الأولى التي أرى فيها حوائط المنزل شديدة البرودة.. إنّها الثانية، ولكنها مثل الأولى تمامًا، كُتِبَ عليّ أن أعيش كل أحزاني مرتين.. مرة عندما حدثت والأخرى عندما أتذكّرها بعد ذلك، كم هو من الصعب أن تعيش فراق نفس الشخص مرتين، وكأن الحياة تخبرني أن مرة واحدة لم تكفِ، وأن ألمًا واحدًا لا يكفي، وأن جرحًا واحدًا لا يكفي.. طلبت من أمي أن نعيد تشغيل القرآن في المنزل حتى أتمكن من أن أعيش نفس الأيام بنفس اللحظات لعلها تؤدي لنفس النتيجة، أن أتعافى مع مرور الوقت، كنت أعلم علم اليقين أن الإنسان ما دام حيًا لا ينسى، وإنما يُلقي بالتراب فوق الذكريات مع مرور الوقت حتى يدفنها، ولكنها تظل موجودة، مع أي رائحة أو موسيقى أو مكان يُنبَش القبر وتخرج الذكرى حيّة تُرزق تفعل بنا ما تفعل، مُرَّة أو طيّبة كانت

www.idafabooks.com

تخبرنا أنها ما زالت موجودة وإن لم نكن ندري أنّها لا زالت هناك أصلاً!

لقد تعقد الأمر كثيرًا وصار كل شيء في عداد الغرائب.. كلما تذكّرت أبي كنت أسير في الطرق هائمًا أتلصص أي وجه أعرفه بين المارة لعل الألفة تداوي مشاعر الفقد، ولكن يحدث أنك تتجول في طرقات وأمكنة لا تتذكر شيئًا مما حدث فيها حتى، لا تتذكر ربما أنك ضحكت هنا يومًا أو حتى بكيت، لن تتذكر تفاصيل أيامك بين أصدقائك أو حتى حبيبتك، ولكن يستحيل أن تمر بمكان ولا تتذكر أنك حزنت هنا يومًا أو سعدت، إننا لا نتذكر الأحداث ولكن نتذكر مشاعرنا فيها، ربما لا يذكرك العطر بأنه التصق بجسدك في يوم فراق أو خلاف أو مشدّة أو خبر حزين ولكنك تستعيد كامل مشاعر الحزن إذا غادر رذاذ العطر زجاجته مرة أخرى لاحقًا.. ليست الذكرى فقط في المواقف والأشخاص، هناك معان ومكنون آخر لها وأبعاد لا يمكن إدراكها أو إحصاؤها، في الواقع الذكريات هي نحن، الحاضر الذي نستميت فيه لكي يكون في أبهى صوره هو ذكرى الغد، انتابني سؤال منذ استفقت على خبر فقداني الذاكرة.. "أيهم أهم.. الماضي أم الحاضر أم المستقبل؟.."

لم أستطع أن أجيب نفسي عن هذا السؤال.. وحتى بعدما مر الوقت لم أستطع بعد أن أجيبه..

www.idafabooks.com

أن للماضي قدسيته في دواخل كل منّا، لا أحد يستطيع أن يتجرد من ماضيه، وإن استطعت أن تغض الطرف عنه ليوم لشهر لسنة، سيعود لك بلا نقاش، سيعود في صورة في لوحة في عطر في مكان في شخص، تختلف الوسائل ولكن يعود، لا أستطيع أن أجزم أيهم أهم.. الماضي بحزنه وسعادته الذي هو الحدث الثابت المتحقق الوحيد، أم الحاضر الذي يمكن أن تصنعه بيدك ويعطيك فرص جديدة كل ثانية، أم المستقبل الذي تتطلّع أن يكون أفضل؟؟؟

سؤال محيّر جدًا.. ولكن إجابته بسيطة.. نحن كل الأزمنة، نحن الماضي والحاضر والمستقبل معًا.. لا يمكننا أن ننفصل عن أي منهم، فلا يمكن المفاضلة بين جزء منّا وجزء آخر.. من الواضح أيضًا أن التجول في الطرقات ليس هو الحل.. وأنه لن يعيد الماضي ولن يغيّر الحاضر.. مؤلمة هي تلك اللحظات التي لا تملك لنفسك فيها شيئًا.. مؤلمة اللحظات التي تشعرك أن عالق بين الأزمنة.. مؤلمة..

عدت في إحدى الليلات المظلمة من التجوّل ليلاً، راق لي أن أعيد فتح مذكّراتي لعلي أجد فيها جديدًا ينعش جزءًا غير حزين.

كنت كلما قرأت كلمة في تلك المذكرات أدركت أنه بالنسبة لبعض الأشخاص الذين يحسبون كل شيء بالورقة والقلم

www.idafabooks.com

ويخططون بكل الاحتمالات لكل شيء، يكون صعبًا عليهم تفسير الحزن والسعادة والمشاعر كافة.

والأصعب أيضًا من إدراك أسباب ونتائج هذا الشعور هو وصفه.. نعم، وصف الشعور هو أكثر الأشياء التي نعجز عنها، إمّا أن تخذلنا الكلمات أو تحتجز على طرف شفاهِنا أسيرة الموقِف، أو نتلعثم وتتخبط المعاني وتفقد الكلمات فائدتها.

والفن بكل طوائفه - الذي يطلق الشعور إطلاقًا - هو التفسير الوحيد الذي يجعلنا ننجذب إلى القصائد والروايات والكلمات وكل ما يمكن أن يصف ما عجزنا نحن عن وصفه برغم أننا خُضناه بكل ما أوتينا من مشاعر..

كانت الكتابة هي الفن الوحيد الذي اتقنته ليخرج فائض مشاعري في تلك اللحظات، حزينة كانت أو سعيدة..

فتحت الصفحة التي وقفت عندها المرة الأخيرة..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

"الساعة الآن الثالثة والربع فجرًا..

ما زلت في كل مرة أعقد النيّة على الكتابة أبدأ باسمك.. لا زلتِ تراودينني في صحوَتي قبل منامي، وإنّ في قلبي إليكِ شوق فاق كل الحدود وإن كنتِ جواري.. والغريب فعلاً أني أشتاق إليكِ وأنا جوارِكِ أكثر من شوقي إلى عينيك في الغياب.. غيابكِ يؤلمني حتى يصير ألم المعنى مادة وأشعر بوخز في أضلعي.. ولكنكِ ربما لا تدرين، لا تدرين أن روحي هي التي تذوب عشقاً في ذاتك.. فصارت نواظري تحب منكِ كل ما فيكِ، وتطرب أذني بسماع اسمي منكِ أو اسمك من الأغراب، بل وصار قلبي يهتز - لا ينبض - إذا لاح ظِلكِ بالجوار، وروحي تتحسس طيف روحك إذا بدا.. شعرت بالحب وقدسيته فقط عندما طرقت أنت بابي، شعرت بالدنيا تتغيّر صورتها التي طالما رسمتها، وجدتها أجمل بكثير إذا طاب الوقت بكِ وأقسى بكثير إذا غِبتِ عن المشهد، تتلصص عيناي دائمًا بين الحضور تأمل أنكِ هنا، وما منك أغلى وما منك أعز.. وما منك إلى قلبي أقرب وإلى روحي أدنى وإلى ناظريّ أحب وإلى مسامعي أكثر طربًا من صوتِك..

فكيف أنسى من أشبعت روحي بها غرامًا قيامًا نيامًا، وأثلجت صدري بعد كل نار وأضفت عطفها فوق كل ألم.. حنانًا أمنًا حبًا..

تذكرتك في كل مكان شهد ظلّي وظلّك معًا على أرضه، وتذكرتك في كل أرض لم تجمعنا بأني تذكرتك فيها يومًا.. صارت الإسكندرية

www.idafabooks.com

كلها أنت.. كل الوجوه تشير إليك وكل الطرقات صارت برائحتك.. حتى أنّي صرت أميّز عطرك في كل المارة في كل مكان، وأسمع رنة هاتفك في كل هاتف.. صرت أنت الإسكندرية وصارت الإسكندرية كلها أنت.. ما كل كلام الأرض يكفي مُتَّسعًا لوصف المشاعر.. وكيف تصف ما فوق الوصف.."

قرأت هذا النص وكنت أسخر من ذاتي، فكأني أقرأ الماضي والحاضر معًا بنفس العين، لقد رأيت الدبلة في يد جيداء واليوم أقرأ نصًا يتغزّل في حبّها، ولا أتذكر حتى ماذا حدث بيننا بعد ذلك..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

مرّت الأيام في العام الرابع وأنا أتودد إلى جيداء بمعدل أكثر سرعة من ذي قبل، فاجأتها في عيد ميلادها بخاتم فضي به فص زجاجي كان يشبه تمامًا الماس حتّى أنّها فزعت حين رأته تخيّلته ماسًا، لم يكن عيد مولدي بالبعيد عن عيد مولدها ولكنني كنت أكبرها بعام كامل، أهدتني في عيد مولدي زجاجة عطر غالية الثمن.. الآن فقط فهمت.. زجاجة العطر التي رششت منها في الهواء يوم أحرقت الطعام.. هي نفس زجاجة العطر التي أهدتني إياها جيداء، بمجرد أن ملأ هذا العطر الجو تذكّرت كل شيء عن جيداء، إن هذا العطر وإن كان رذاذًا فهو يحمل الكثير من المعنى، يحمل ذكرياتي كلها بين قطراته المنتناثرة في الهواء، لم يكن عطرًا.. بل كان إكسير حياة..

مرّت الأيام في هذا العام حتى انتصف الفصل الدراسي الأول، تقريبًا في شهر نوفمبر، بدأت أنا وجيداء في تبادل أطراف الحديث في الكثير من الأمور الشخصية، كنت أخبرها دائمًا أنّي لا أحب أن أتزوج من امرأة عاملة، كنت أعلم أن هذا ربما لا يستهويها ولكن كنت أرى – لم أكن أرى بل كنت متأكدًا – أن عمل المرأة ربما يهد كيان الأسرة، ليست كل النساء قادرات على إدارة شركتين في وقت واحد؛ منزل وعمل، كنت أحاول أن أوضّح لها وجهة نظري بشكل يليق بذوقها وكنت أتمنى ألّا يضايقها كلامي، مررّت جيداء الأمر بدون أن تبدي رأيها فيه، وكان هذا مقلقًا بالنسبة لي، كيف لأمر

www.idafabooks.com

مهم مثل هذا لا تعطيني فيه رأيًا؟! ولم تجبني حتّى بالإيماء أو الرفض، لم تبدِ أي تعبير على وجهها ولا أي شيء، غيّرت الموضوع، لم أسألها إن كان كلامي ضايقها أو لا، كنت أعلم أن جيداء تحبني مثلما أفعل، كنت أعلم أن بإمكانها التنازل عن بعض الأشياء في سبيل إنجاح علاقتنا، وهذا واجب عليها لكي تكون مؤهلة للزواج مني، مرّت أيام على هذا الحوار الساخن ولم تتغير جيداء معي إطلاقًا، كان هذا مطمئنًا لي أنها لا زالت على العهد، لم أصارحها بعد بنيتي في الزواج منها ولكن ربما كلامي الذي يحمل عدة معاني دائمًا كان واضحًا لها، مر أسبوع ثم عدت أسأل عن حالها، وتحدثنا حديثًا طويلاً تطرّقت هي فيه بذكاء إلى أحد الموضوعات الشائكة، بدأت تخبرني أنها لا تحب الرجل الذي يرتاد المقاهي، ثم بدأت تتحدث عن أصدقائي وتخبرني أن بهم من لا يليق بي وبأخلاقي، ذكرت لي أن تقرّبي من أحد اصدقائي - بدون ذكر اسمه - كان السبب في حصولي على درجات متدنية في اختبارات منتصف الفصل، لم أكن أعلم هل ترد لي الآن - بعد كل هذا الوقت - على أمر عمل المرأة؟!! كانت تتحدث معي بجرأة مثل التي تحدثت أنا بها تمامًا حينها، أغلظتُ الحديث معها وأخبرتها بشكل غير مباشر أن هذا الأمر شخصي ولا يخصها، لقد كنت متأهبًا أن أحفظ كرامتي ورجولتي أمامها وألّا أسمح لها بالتدخّل في أموري الشخصية بهذا الشكل.. نهرتها ولكن بصوت هادئ ودم بارد.. حتى بكت وغادرت

www.idafabooks.com

المكان.. كنت في شدة الغيظ من ما قالت ولم ألاحقها حتى اختفت.. أرسلَت لي – على غير توقّع - رسالة قصيرة "لا تهدم أسوار الأمان التي بنيناها معًا" وأغلقت هاتفها وحسابها ولم أرها لثلاثة أيام في الجامعة.

كان أول شيء خطر ببالي أن هذه الأفعال هي أفعال فتاة في سن المراهقة، نحن نتحدث في أمور جدية وهي تتحدث عن أسوار الأمان؟ أي أمان؟! ألا أستطيع أن أوفر لها الأمان فعلاً؟ هل لا أستطيع أن أكفلها هي وأطفالها؟ هل لا أستطيع أن أحميها من عيون الغرباء أو نظرات المتلصصين على حياتنا؟! أي أمان؟! لم تبحث عني في يوم ولم تجدني، لا أحب تلك الحركات ولا أحب أن يتعامل معي أحد بهذه الطريقة، لقد أخطأت في حقي وأغلقت الهاتف ولم تكلف نفسها بالاعتذار أو السؤال عنّي.. مر أسبوع.. ثم عادت إلى الجامعة، علمت من شيماء أنها كانت على سفر مع والدتها إلى باقي الأسرة طوال الأسبوع الماضي، إذًا ليس الأمر حزنًا كما كانت تدّعي..

لم أرد أن أذهب إليها، انتظرت كي تأتي وتعتذر ولم تفعل.. مر أسبوع آخر.. لم يتحدث أي منّا للآخر بكلمة واحدة، ولا حتّى تنظر في عيني ولا تنظر إليّ كأني هواء تمامًا..

www.idafabooks.com

تبقى أقل من شهر على اختبارات نهاية الفصل الأول، لم أكن أصدق أن جيداء عادت غريبة أكثر من الأغراب شخصيًا بسبب لحظة غضب، كلما كانت الأيام تمر كانت تشتد عليّ الذكريات التي جمعتني بها، تهاجمني في كل ليلة قبل النوم وفيه وبعده، كنت أستيقظ أتمنى لو أسمع صوتها، أذهب إلى الجامعة منطفئًا..

ظل هذا الإحساس القذر يراودني أني ربما أفقدها.. لا أدري لماذا!

ولكن بمجرد أن دارت الأحاديث في نفسي.. لم أشعر بالخوف أن يكون هذا واقعًا في يوم من الأيام.. ربما إحساس الخوف هو أحقر بكثير أن يقال في موقف كهذا..

إن الخوف لا معنى له أمام أن أعيش هذه الحياة الدنيا بدونها.. يتضاءل إحساس الخوف كثيرًا وتتضاءَل معه أوصاف كل يوم يمكن أن أُصبح فيه على دنيا هي ليست فيها.. كيف أتحمل أن تجمعنا الأرض أحياءً أو أمواتًا وهي لست من أرضي في شيء؟!.. لا أتخيل أن تكون الدنيا بهذه القسوة.. أن تكون عيني في عينها ولا أستطيع أن أسأل عن حالها..

أن تكون موطني ولكنّي في المنفى.. بأي ذنب؟!

www.idafabooks.com

كانت تظن أنها مسندي ومُتّكئي باهتمامها.. لكن لا والله.. إنها المرة الأولى التي أدرك فيها أن أحيانًا وجود البعض في حياتنا وإن لم يكن فعّالاً هو في حد ذاته المُتّكأ.. هو في حد ذاته الوطن والمَسعى..

استجمعت قوّتي بعد انتهاء الدوام، وذهبت إلى جيداء، ما إن رأيتها واقفة أمامي.. دمعت عيناي وابتدعتُ إلى الخلف.. لم أكن أتخيل أن المواجهة بهذه القسوة، فضّلت أن لا نتحدث وجهًا لوجه، فأرسلت لها..

"هل تعلمين يا جيداء؟ لا أريد أن أتحدث عن هذا اليوم الذي بكيتِ فيه، أريد أن نتخطاه بكامل قوانا وأن نعبر فوقه كي نستطيع أن نكمل الطريق، حتمًا هذه ليست العقبة الأخيرة، الحياة أكبر منّي ومنّك، فإن لم نعبر فوق الآلام فكيف سنواكب الركب؟ هيّا نتخطى الأزمة كي لا تنتهي سنوات من المشاعر في ثوانٍ لا أكثر.. لا تكرري مشهد الموت الذي ينهي الحياة بأكملها في جزء من الثانية، لا تنهي علاقتنا في ثوانٍ.. لا تكوني أنت الدواء والداء.."

لم تلبث أن قرأت الرسالة إلّا وجاء الرد سريعًا:

"إن أفشل منظومات الشراكة هي مبدأ التخطي، سأعبر اليوم فوق ألمي وتعبر أنت غدًا فوق ألمك وتتراكك الآلام فوق الآلام حتى تصبح جبالاً لا يمكن أن نتخطاها، لماذا لا نُصلِحُ ما كُسِر كلما

www.idafabooks.com

كُسر؟ لماذا لا نرمم الجراح سويًا؟ ويظل السؤال الأكثر أهمية بين كل هذا.. لماذا هدمت أسوار الأمان؟"

تنهّدتُ نتهيدة طويلة وأرسلت لها.. "سأفعل ما تأمرين به، ولكن أخبريني فأنا لا يسعفني الفهم، ماذا تقصدين بأسوار الأمان؟"

ظللنا طوال الليل نتبادل أطراف الحديث.. استطاعت جيداء أن تكسر بي كل غرور.. اكتشفت أن الأمان ليس هذا الذي يغطي المال والحراسة وعيون الناظرين وتلصصات المتطلعين على حياتنا، إن الأمان الذي تحتاجه المرأة ليس أن تأمن السرقة، بل إنه أمان المعنى لا المادة، إنه الأمان في أن تشعر أن دموعها أغلى من أن تُذرَف بسببي أنا، أن تشعر بالاطمئنان أنها إذا احتاجت مودّتي وجدتها، أن تشعر أن حزنها أهم لدي من أي قضية نتناقش فيها، وأن لا تخشى مناطق الاختلاف بيننا ولكن أن تكون هي على يقين أنّك تنظر دائمًا إلى مناطق التقاطُع فقط.. تريد أن تشعر أن لها كيانًا لا يفنى في كيان شريكها، وبالرغم من ذلك فهي تريد أن تنام ليلاً بجواره تلقي كل أعباء المسؤولية على كتفيه، كانت المرة الوحيدة التي أفهم فيها أن قوامة الرجل المعنوية أكبر وأهم بكثير من قوامته المادية، أن يكون قوّامًا على أمر زوجته لا متسلّطًا عليها، أدركت أن في لحظة الغضب يعمى البصر وليس لحظة الحب فقط، أن عقل الأنثى ليس كعقل الرجل، اكتشفت أنها عندما قالت لي احذر فلان وفلان كانت تخشى فعلاً عليّ كأمي، ربما خانتها

www.idafabooks.com

الكلمات لكنّي أدركت الآن أنها كانت تنوي خيرًا، وفوجئَت بردة فعلي الهمجية تجاهها لذلك بكت، إن دموع النساء تجري إلى أعينهم في السعادة وفي الحزن.. كان كلامها له وقع الصاعقة علي، قالت جيداء إن في هذا اليوم شَعَرَت باللا أمان وبالفجوة بين فهمي وفهمها.

الآن فهمت أن كل المشاكل التي تحدث بين الرجال والنساء هي في الأصل نتيجة الفجوة الهائلة في الفهم وإدراك حقيقة مشاعر الطرف الآخر، وأن دائمًا هناك طرف يفكر بعقله وطرف بقلبه فلا يتقابلان، أو أن أحد الأطراف يتنازل حتّى يصبح الأمر حقًا مكتسبًا للآخر، أدركت أيضًا أن التعود أحيانًا يكون شرًا، وأن الاطمئنان الكامل لا يجب أن يُعطى ببذخ، فقد تعوّدت على وجود جيداء واطمأننت لحبها، فأعتقد أن هذا التعود أكسبني حقًا لم أكن أستحقه، وهو استهلاك تمسّكها بحبال علاقتنا في التنازل عن بعض حقوقها، لقد أخذتني العزة بنفسي ولم أدرك أن العلاقات القويمة تكون تكاملية لا استبدادية، وأن يكون أساسها التبادل لا التنازل، اعتذرت لجيداء وسألتها أن تأمر بأي شيء تسامحني بعده، ولكنها أخبرتني أنها لا تريد هدية تعيد ثقتها بي أكبر من أن أعدها بالأمان لا أكثر.. من السهل جدًا أن تُرضي أنثى ولكنه أيضًا شيء صعب جدًا، إذا حللت اللغز صار الأمر مثل الماء بيدك، وإن لم

www.idafabooks.com

تفهم فسيدور عليك الدهر وأنت واقف مكانك لا تحرك ساكنًا في علاقتكما..

لقد تجلّى في الاختلاف حبّي لها وأدركت الآن فقط أني لا أحب جيداء لأسباب، فالأسباب تفنى، وأن كل ما هو قائم على الحسابات والاحتمالات ليس حبًا.. كل ما هو قائم على المتغيرات ليس حبًا.. كل ما هو قائم على جمال فلانة ووسامة فلان ليس حبًا..

كل ما هو قائم على الاتفاق والتشابه في كل شيء ليس حبًا.. كل ما هو قائم على متغيرات ليس حبًا.. بل وهم..

فإن لم يكن كلا الاتفاق والاختلاف مناطق التقاء فهذا ليس حبًا، وإن لم يكن الضعف والألم والكسر مثل السعادة والنجاح تمامًا فهذا ليس حبًا..

الحب أرقى من كل الرسميات والشكليات.. يتجلى حين يتواضع كل منكما عن أسباب تقديره لذاته ويغض الطرف عن الكيان والمكانة في نفسه وفي الآخر ويرى بالعين التي لا تكذب أبدًا.. عين القلب..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل الثامن

كان هذا الفصل الدراسي في غاية التعقيد، مرَّ مُحملاً بالكثير من الفشل والكسور والترميمات ولم ينتهِ كما كنت اتمنى، في بدايات الترم الثاني كان الأمر فظيعًا..

في يوم نتيجة الفصل الدراسي الأوَّل وقع علي الخبر مثل الصاعقة أن تقديري تغيّر من الامتياز إلى الجيد، هدأت قليلاً عندما وجدت المتوسطات العامة للتقديرات منخفضة هذا العام حتّى أن عدد الحاصلين على تقدير امتياز هذا العام كان قليلاً جدًا لا يتجاوز الخمسة، وبالطبع كان أوّلهم بهي الدين، لم أكن أدري هل أنا المقصِّر أم أن الظروف خانتني، لم أكن أدري هل بذلت الجهد الكافي أصلاً أم لا، هل كنت أستحق أن أخسر كل هذه الدرجات بعد ثلاثة أعوام من الامتياز؟ كان لهذا الخبر تأثير شديد على نفسي رافقني طويلاً، كان هذا الخبر عشية وفاة والدي.. فرافقني الألم إلى أن أذِن الله له بالرحيل لا أدري متى..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

فبراير.. ٢٠١٩ ..

تحديدًا ١٥ فبراير..

كنت أتردد على حسابي على فيس بوك مثقلاً من وقت لآخر من بعد الوفاة، وبالرغم من أن جيداء كانت من أكثر الشخصيات التي وقفت بجانبي وقتها، إلّا أنها للأسف لم تعوضني شعور الأب، لم تستطع مهما فعلت..

أثناء تصفحي لهاتفي وجدت جيداء تكتب على صفحتها

"أرجو الدعاء لأبي بالشفاء العاجل"

هرعت إلى المحادثة

"جيداء، ماذا هناك؟ ماذا حدث لوالدك؟"

- "عاد ابي للتو من معمل التحاليل.."

وما نتيجة تلك التحاليل؟.."

- "إنه مصاب بورم خبيث يا إياد"

"ماذا، ورم؟ كيف ومنذ متى؟"

www.idafabooks.com

- "لا أعلم صدقني، لا أعلم أي شيء، لقد عرفت الخبر توًّا وأنا في حالة انهيار"

"لا تقلقي يا جيداء، لا تقلقي سيكون بخير سريعًا، أعرف الكثير من الأشخاص الذين نجو من هذا المرض اللعين، اهدئي رجاءً"

في الحقيقة كنت أحاول أن أمتص طاقة القلق التي استولت عليها في هذه اللحظة، لكن الخبر كان صادمًا لي، كنت أشعر أني لا أشعر، كنت مثل الأموات لا يؤلمهم نصل السكين.. كانت المصائب تتوالى الواحدة تلو الأخرى ولا أعلم ماذا يجري، كنت أجاهد نفسي في أن أحافظ على الأمل ولكني كُسرتُ من كل النواحي.

حاولت بقدر الإمكان التخفيف عن جيداء وكنت أنا في ألم أكبر منها.

كانت محبتنا المتبادلة هي الدافع الوحيد لبقائي حيًّا.. كنت أسير في حبها مُثقلاً حاملاً هموم الكون على منكبيّ، ولولا وجودها بجواري في وقت عصيب مثل هذا لما أكملت من الطريق شبرًا.. مرّت الأيّام هيّنة في وجودها برغم قسوة الظروف وحلكة الليالي.. أدركت وقتها أن الإنسان لا يحتاج للحب لكي يأخذ صورة بجوار خطيبته أو يرقص معها في زفاف، كل هذه الشكليات مظاهر لا قيمة لها، لا

www.idafabooks.com

معنى لها، إذا رافقك المصور والمدعوون إلى الكوشة فلن يرافقوك المنزل، إذا صفّقوا بعد رقصة الزفاف فلن يصفقوا في نجاحك بدلاً من زوجتك، إن قاموا ليأخذوا صورة تذكارية معك لن يقوموا عليك ليلاً إذا مرضت، إذا شدّوا أستار القاعة احتفالاً بك لن يشدّوا عضدك إذا خذلتك الحياة، أدركت الآن أن الأشخاص ليسوا بالمظهر، ليس الرجل بتلك البدلة الأنيقة المنمّقة، ولا الأنثى بذلك الرداء المرسوم على جسدها، فكلها شكليات، لن تشفع البدلة ولا الرداء في ساعات الخصام، لن يشفع الشعر الذهبي والعيون الزرقاء في الخلافات الجوهرية، فإذا كان الحب نفسه أحيانًا لا يشفع، إذا كان المعنى لا يشفع، فهل ستشفع المادة؟

كنت أتردد على قلمي وأوراقي بين الحين والآخر، كتبت ما كتبت في حبها حتى استفاضت الأوراق من كلماتي، حتّى أفنيت محابر الحي بين طيّاتها..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

"إذا سألتني عن الحب.. ربما لن أجد لك إجابة صريحة شافية.. وإنّه شيء غير ملموس ولا يخضع لقواعد المنطق ولا يخلو أي قلب مهما كان منه أو من بعضه، ندركه بأدلّته لا بذاته.. فحين تحب حقًا لا تدرك أنك أحببت لأنك لا تدرك حينها شيئًا أصلاً وربما تأبى نفسك أن تستسلم لقواعد النمطية أو تخضع لكلمة "تجري العادة على كذا" بل تفضل أن تؤمن كل الإيمان أن ما أريد هو الحق حقًا ولا تعني لي العادة في شيء.. إن الحب يُعرف بشواهده ويتجلّى بخصوصيته.. فإذا رأيت محبًا يقص ملء الأرض كلمات عن محبوبه فاعلم أنه غير صادق أو ربما حديث عهد.. أو طائش..

وإن سألتني عن آمارات المحبين الصادقين لقلت لك لا تُعد ولا تحصى..

ولكن المحب فعلاً لا يدرك أنه يحب، فترى في عينيه بكل وضوح فاضح خوفه على حبيبه كأنه ابنه، ترى الدمع يترقرق بين جفنيه إذا تأذى وتشعر بقلبه يعتصر ألمًا.. وإذا حاولت أن تسأله كيف يتخيل الحياة بدون حبيبه لصفعك على وجهك أو ألقى بك من نافذة في الطابق العاشر..

وإذا خلا بحبيبه للحديث شعرت الشغف والدفء والحنان يسري كأودية وجداول وأنهار في كل شبر في المكان..

www.idafabooks.com

وإذا تلفّظ بكلمة حب اندفع منها شعاع مشاعر جاء من أقصى أعماق قلبه حتى سرى في شراييك أنت شخصيًا وإن لم تكن معنيًا.. إن الصادق في مشاعره له قوة لا أحد يدري أبعادها سوى خالقها..

الحب أيضًا عدسات جديدة للحياة..

مرآة ذاتك التي لم تلوثها الآلام والخيبات.. فأنت حين تحب لا تحب بعقلك إطلاقًا.. ولا حتى بقلبك.. لكن بروحك.

لقد كنت أظن طوال عمري أن الروح هي شرارة الحياة في الجسد فقط، ولكن اكتشفت مؤخرًا أن الروح هي نحن، هي القلب الذي يحب والعين التي تبصر والمشاعر التي تندفع لأرواح أخرى سكنت فينا واستوطنت كل شبر..

فإذا وجدت نفسك تفاضِل بين ذاك وهذا فلا تختر أيهما.. ذلك أكرم.. الحب ساحر يحمل رخصة السعادة.. يُكفيك من حبيبك النظرة والسلام فترى الأرض طاقة حياة.. أو تشعر أن لك جناحين فعلاً تحلق بهم خلف الأفق بعد المدى ولا تدرك من الواقع لا شيئًا ولا أشياء..

الحب صندوق الحياة والموت.. فإذا راودتك لحظات القلق أو لقطات الغيرة أو ليلة حزينة.. شعرت أن الكون كله أسوأ من ما هو

www.idafabooks.com

عليه مائة مليون مرة الضِعف.. ورأيت الموت والحياة سيان لا هذا يرضيك ولا ذاك يطيب ألمك.. إن الحب مقاييسه متفجّرة في كل شيء، تعطيك سعادة تفوق الواقع بملايين المرات وحزنًا أكبر من الواقع أيضًا.. الحب حياة موازية للحياة.. فإن عشتها بالطريقة المثالية كانت الحياة كلها..

وإياك والعبث بمشاعر أحد.. فإنها خط النار.. ما بعده موت وما قبله عذاب.. اترك خط النار يعبره من يطفئه فقط..

إنها أحاديث النفس كل مساء.. التي ترفض كل ما ليس لكِ.. إنها روحك التي غرست أقدامها بين الأضلع.. وإنها نفس الأمنية التي تراودني كل يوم.. أن يتوقف الزمن وأنتِ بين يدي..

سألني فلانٌ لا أعلم عنه غير السؤال.. أيهما أجمل.. أن تحب أم أن يعطيك أحدهم حبًا تحتاجه؟

لم أجب عن هذا السؤال وقتها.. برغم إيماني أن هناك إجابة أخرى سوى "كلاهما معًا".. وها أنا أجيب بكل قوتي وأقولها كلمة واحدة "أن تحب".. أن تحب فأنت وقتها فقط تكون قادرًا على انتزاع ذاتك من كل المستنقعات فقط لتكون كفأً لحبيبك.. أن تحب.. فتهون الدنيا بين عينيه ويهون الألم.. ويطيب كل ما في الحياة بحضوره.. أن لا تشعر بوحشة الليل وإن لم يكن بجوارك..

www.idafabooks.com

أن تهيم مع كلمات القصائد ولا تبالي لأسباب الضيق إذا كان حاضرًا وإن لم يحبك.. فإن أحبك.. ملكت الدنيا وما فيها..

وأشرقت شمس لا تعرف معنى الغروب..

إن أصدق اللحظات مع النفس هي لحظة تألّق المشاعر.. اللحظة التي لا يمكن أن تغفل عنها أو عن مشاعرك فيها.. إنّها اللحظة التي لا يشفع فيها إلّا الصِدق ويتجلّى فيها مكنون القلب حقًّا.. هذا الذي يغطيه ضوء النهار ويعلو بجواره صخب المدينة فتظن أنه بالٍ لا محالة.. ولكنه يستيقظ فيك إذا سكن الناس وخفضت المدينة أصواتها.. وكأنه صوت يناديك في كل لحظة يتهمك بالحمق أنك تغافلت..

إن الحياة أيام تمر وأحداث تمر وحياة بالكامل تمر.. وهي تمر بإرادتك أو لا فهي بإرادة رب الناس وليس الناس.. فإما أن تحيا بحق أو مُت وأنت تحاول.. يظن الناس أن الحياة هي ما نسعى لأجله لكن بالعكس.. الحياة فعلاً في كل ما غضضت الطرف عنه ظانًّا أنه مضيعة للوقت.. إن ذاتك فعلا هي كل ما لم تجد له وقتًا..

ظللت تروي جسدك بالطعام وجيبك بالمال ولم تذق روحك المعنى.. وافقت أن تجرد كل شيء من هويته في سبيل تحليله وبيان صحته من بطلانه وغفلت عن المجمل.. الصورة الكاملة التي لا يغفل عنها إلّا أعمى.. أعمى القلب..

www.idafabooks.com

عندما يتحول الأشخاص لديك لمجموعة من المميزات والعيوب.. تنازل عنهم لا محالة..

أن تحب العيوب هي أول وآخر خطوات الحب صعوبة وطهارة ونقاء..

مرورًا بغض القلب عن من سواه.. الحب بين شفاه التنازلات مستقر.. لا يمكن أن يستمر بدونها.. الحب حياة وشغف ومعنى.. الحب للشجعان..

❊ ❊ ❊

دوّنت هذه الكلمات مع اقتراب انتصاف فبراير.. ولم أكن أعلم..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل التاسع

الخامس والعشرون من فبراير ٢٠١٩

"صباح الخير يا إياد"

- "صباح الخير يا جيدا، لقد أتيتِ مبكرًا اليوم.."

"جيدا؟"

- "آسف، جيداء"

"لا داعي للأسف، كانت لطيفة منك"

www.idafabooks.com

- "شكرًا، كيف حالك؟"

"أفضل من حالك بعد قليل"

- "ماذا؟"

"أعني ما قلته"

- "أتمنى أن لا أكون فهمت، هل هناك مصيبة جديدة؟"

"شيء من هذا القبيل"

- "حسنًا، سأستجمع قواي.. سأهدأ.. حسنًا.. ما الأمر؟"

"يؤسفني أن أخبرك.."

- "تخبريني ماذا؟"

"سأدعوا الله أن تجمعنا شتّى بقاع الأرض"

- "ما الأمر يا جيداء؟ أثلجت عروقي.."

"أبي.. مريض جدًا.."

- "كلنا نعلم يا جيداء، سيشفى عمّا قريب لا داعي للقلق"

"ليست هذه المشكلة فقط يا إياد"

www.idafabooks.com

- "ما المشكلة إذًا؟"

"أمي.."

- "مريضة هي الأخرى؟"

"لا، أمي ستستقر بجواره الفترة القادمة ولا أعتقد أننا سنزور مصر مرة أخرى، لا يمكننا أن نتركه وحيدًا هناك وحالته حرجة للغاية، ولا يمكنني أن أبقى هنا وحدي لا قريب ولا حتّى غريب وأبي يريدنا جميعًا معه.."

- "ماذا تقصدين؟"

"سأعود إلى دبي ولكن هذه المرة بدون رجعة"

- " ..... "

"إياد.. لماذا الصمت؟ أليس لديك شيء تقوله؟"

- "وماذا يقال في لحظات الموت غير الشهادة.."

"ألن تُحرِّك ساكنا؟"

- "ما باليد حيلة، سأتزوّجك مثلاً وأنا طالب؟ سأوفر المأوى والعمل والدخل بدون حتّى أن أتخرّج، كل هذا سأفعله الآن قبل موعد طائرتك؟"

www.idafabooks.com

"إذًا.. وداعًا"

- "وداعًا؟ بهذه السهولة!"

"ما باليد حيلة، أليست هذه كلماتك؟"

- "نعم، ولكن لماذا وجدتها قاسية منكِ؟!"

"كانت أشد قسوة من شفتيك ولكنك لم تشعر"

- "هل هذا كابوس؟!"

"لا يا عزيزي، إنّه الواقع، وقد خيّرتُك الآن وقد اخترت"

- "خيّرتني بين الموت بالفراق أو أن أُجري المعجزات بين يديّ وأسبق الزمن!"

"إن كان لنا نصيب في لقاء آخر سنلتقي يا إياد، شكرًا لك.."

- "نصيب؟.. لقاء؟.. هههه.. هههههههه.. هههههههههههههههههه "

"يا للسخرية!"

- "لا أسخر، لا تعاتبي الأموات على رائحة جثثهم، أنا الآن جثة ولا تغرّنكِ صلابتي أمامك.. لقد فقدت كل شيء، أتتخيلين أنّي حيّ مثلكم؟"

"وداعًا.."

- "لن أودّعك.. لن أفعل.. هذه ليست النهاية وسترين"

www.idafabooks.com

أدارت جيداء ظهرها إليّ ومشت بخطى بطيئة.. ظللت أهذي وأرفع صوتي مثل الثملين تمامًا وأضحك وأطأطئ رأسي وأرفعها واضعًا يديّ في جيوبي وأنزعها وأقول بصوت عالٍ وأنا أضحك ساخرًا "لا وداع بين الأحبة.. لا وداع.."

عدت إلى المنزل في نفس اليوم، فتحت درج المكتب وأخرجت باقة الزهور التي أهدتها لي جيداء وألقيت بها من الطابق السابع ثم نزلت إلى الشارع أبكي بجوارها، حتّى ظن المارّة أنّي مجنون.. كنت أفعل كل تصرفات المجانين في هذا اليوم، وكأن نفسي تأبى أن تتقبل ما حدث، لقد رحلوا جميعًا وفي كل رحيل أخذوا جزءًا من روحي، لم يتبقّ لدي شيء أعيش به.. لقد مت في كل وداع وفي كل فراق وفي كل فشل وفي كل حزن وفي كل فقد.. إن الإنسان لا يموت مرة واحدة، بل يموت كثيرًا، الإنسان هو أكثر الكائنات الحيّة موتًا طوال فترة حياته، تتعدد الأسباب والنهاية واحدة..

دائمًا هناك كسور لا تجبَر وصراخ لا يُسمَع وهناك ذكرى لا تُنسى، دائمًا هناك أشياء لا تخضع لقواعد المنطق ولا تسري عليها قوانينه، لا ترضخ للنسيان وليست قابلة للشفاء ولا للحرق.. تلك الأشياء هي كل مخاوفنا..

انتهى يوم الوداع.. وانتهيت معه..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

ليتني ما تذكّرت هذا اليوم.. كنت أفضّل أن أعيش في الوهم على أن يصدمني الواقع، كنت أتمنى أن تقف ذاكرتي قبل هذه اللحظة التي رحلوا فيها، كم كنت أتمنى أن لا أُشفى.. أدركت اليوم أن ليس كل شفاء راحة، ولا كل مرض ألمًا..

الصفحة الأخيرة..

كانت الصفحة الأخيرة في مذكراتي الزرقاء مريبة للغاية، فهي لم تكن موجودة أصلاً، بل كان مكان قطع فقط، تُرى ماذا دُوِّن فيها؟! وأين هي؟

قمت من مكاني وقلبت كل المنزل رأسًا على عقب حرفيًا، لم أترك درجًا إلّا وفتحته ولا صندوقًا إلّا وفتشّتُ فيه، أسفل الأسرّة وفوق الأثاث، حتّى الأرائك لم أترك فيها شبرًا إلّا وفتّشته، لم أجد شيئًا إطلاقًا، ارتديت ملابسي ونزلت إلى الهواء الطلق أحاول أن أتجاوز ما حدث، أحاول أن أتجاوز ذاكرتي التي كادت تودي بي..

ما إن وضعت يدي في جيبي حتى وجدت ورقة.. أخرجتها.. إنّها الصفحة المفقودة! لم أرتدِ هذا المعطف منذ رحيلها..

كانت الورقة هزيلة، ممزقة الأطراف، حتّى أن الحبر عليها كان مموّهًا غير واضح، وكأن به قطرات دموع أو ما شابه.. ومن الواضح أيضًا أنّي فضّلت الاحتفاظ بتلك الورقة.. بدلاً من أن تذهب لصاحبتها..

www.idafabooks.com

"عزيزتي جيداء أعلم أن موعد طائرتك غدًا، أرسل لكِ سلامًا يتجدد مع رَمَشاتِك..

لم أكن أعلم كيف سأنظر لأي فتاة أخرى بعد معرفتي بكِ.. فحتمًا ما رأيت فيكِ رفع سقف توقعاتي وأمنياتي إلى حد السماء، لا أعتقد أن بإمكاني بعد ذلك أن أسقط للأرض مرة أخرى.

لقد بدأنا رِفقًا وهونًا ولا أحب إلّا أن ننتهي كذلك، لقد أحببتك بكل ما أوتيت من مشاعر، حتّى أنّي بذلت في حبك ما أمتلك وما لا أمتلك منها، يشهد الله أنّي ما تركت سبيلاً إليكِ إلّا والتمسته وأنّي ما سألت الله أعزّ منك جنة في الدنيا، يشهد الخلق أني ما استحللت أو استحليتُ مِنك شيئًا بل كنت أتقي الله في كل ما جمعني بك، كنت أجاهد نفسي في ألّا أتجاوز ما لا أستطيع أن أتجاوزه، كنت أخشى ما كنت أخشاه أن لا تفهمي حبي لك بالمعنى الصحيح الذي بطن في قلبي، جيداء ستظلين وإن دار الزمن ودار بإذن الله حبي الأول والأخير، وإن تزوجتُ وتزوجتِ وإن متنا وإن عشنا وإن لم نتقابل مرة أخرى وإن تقابلنا، ستظلين وحدك من دكّ كل الحصون إلى قلبي بنظرة وسلام، ستظلين أول وآخر من سرى دمه في دمي، ولو تعلمين أني ارتضيت اليوم أن تكوني حبيبتي وإن تزوجت أخرى، وأنّي سأخبر أهل البلاد فردًا فردًا أن لي حبيبة تجمعني بها الأرض ولا أستطيع وصلها، لن تكوني أبدًا ماضيّ يا حاضري ومستقبلي، ولتعلمي يا جيداء. رغم أنك ستصبحين جرحًا

www.idafabooks.com

ينزف في روحي مع إشراقة كل صباح إلّا أنّي والله لو عاد بي الزمن وخُيّرت بين معرفتك التي انتهت بالوداع أو أن لا أعرفك أصلاً، لاخترت الأولى.. لاخترت أن أموت مرة أخرى في آخر سلام بيننا مقابل أن أعيش ما كان قبله.. اعذريني إن هزمتني الرغبة والعجز معًا"

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

عزيزتي حيراء أعلم أن موعد طائرتك غداً . أرسل لك سلاماً يتجرد مع رسائلك . لم أكن اعلم كيف سأنظر لأي فتاة أخرى بعد معرفتي بك ! فحتماً ما رأيت ليلك رفع سقف توقعاتي و أمنياتي إلى عنان السماء ! لا اعتقد أن بإمكاني بعد ذلك ان اسقط للأرض مرة أخرى !

لقد بدأنا رفقاً و شوقاً و لا أعب الآن نتنهي كذلك . لقد أهبتك بكل ما أوتيت من مشاعر . حتى أني بزلت في حبك ما أملك و ما لا املك منها . يشهد الله أني ما تركت سبيلاً إليك إلا و التمسته و أني ما سألت الله الجنة في الرنيا . يشهد الحق أني ما استعللت أو استعليت منك شيئاً بل كنت أتقي الله في كل ما جمعني بك . كنت اجالد نفسي في الاقتراب و ما لا استطيع أن اتجاوزه . كنت اخشى ما كنت اخشاه أن لا تفهمي حبي لك بالمعنى الصحيح الذي يطن في قلبي . حيراء ستظلين و إن دار الزمن و دار بإذن الله هي الأول و الأخير . و إن تزوجت و تزوجتي و إن متنا و إن عشنا و إن لم نتقابل مرة أخرى و إن تقابلنا . ستظلين وهلك من دلك كل الحنين إلى قلبي بنظرة و سلام . ستظلين أول و آخر من سرى دمه في دمي . و لو تعلمي أني ارتضيت اليوم أن تكوني حبيبتي و إن تزوجت أخرى . و أني سأختبر اقل الطرق فرداً فرداً أن لي حبيبة تجمعني بها الأرض و لا استطيع وصلها . لن تكوني ابداً ماضي يا حاضري و مستقبلي . و لعلمي يا حيراء . . رغم انك ستسبحين بحراً هائلاً بنزف في روحي مع اشراقة كل صباح إلا أني و الله لو عاد بي الزمن و خيرت بين معرفتك التي انتهت بالوداع أو أن لا اعرفك أصلاً لاخترت الأولى . . لأخترت ان اموت مرة أخرى في آخر سلام بيننا مقابل ان اعيش ما كان قبله . . اعزيني إن عزمتني الرغبة و العجز معاً "

إياد

www.idafabooks.com

مضى فبراير، مضى ولم يمضِ يوم الفراق، كان كل يوم هو يوم رحيلها، مضى فبراير وبدأ مارس.. حتّى قبل انتصافه بقليل.. لم أتحدث أنا وجيداء إطلاقًا منذ رحيلها، كنت أزور صفحتها كل يوم مائة مرة، أتلصص الأخبار عنها يوميًا، إلى أن فوجئت بإحدى صديقاتها تبارك لها.. توقف قلبي لثانية وعاد ينبض مرة أخرى.

"جيداء، مبارك عليك الخِطبة وأتمنى لك زواجًا سعيدًا"

خِطبة؟ أي خِطبة؟! لقد سافرت منذ شهر وبضعة أيام فقط!! لا يمكن.. لا يمكن..

بعدها بثوان وجدت من جيداء تعليقًا على منشور صديقتها تقول فيه..

"أحاول أن أعبر فوق آلامي، لعل سعادة جديدة وحياة جديدة تمحو رواسب الأحزان من قلبي المُحطَّم.."

قلّبت حسابها رأسًا على عقب حتّى استطعت أن أصل لخطيبها، شاب في منتصف العشرينات تم تعيينه منذ فترة وجيزة في مستشفى مع والده، رأيت الكثير من الصور التي تجمع هذا الشاب بوالده ووالد جيداء وكلهم أطبّاء في نفس المستشفى، من الواضح أن هذا الشاب كان معجبًا بجيداء منذ فترة.. لقد قلت لجيداء قبل

www.idafabooks.com

الوداع أنّي أثق أن هذه ليست النهاية.. ولكن من الواضح جدًا.. أنّي كنت مخطئًا..

مضت الأيام وكأنها لا تمضي، أُصبِحُ على ما أُمسي عليه، كل شيء يشبه كل شيء بعد رحيلها، فقدت كل معايير السعادة، صرت أشعر بقيمة كل شيء حولي مهما كان بسيطًا، حتى أنّي كنت أستمع طرقات أقدام أمي على الأرض فأسجد شكرًا لله أنها معي، نحن لا نقدّر قيمة الأشياء إلّا عند رحيلها.. قطعت على نفسي عهدًا أنّي سأشكر الله على كل شيء في حياتي لم أفقده، كنت أنظر لأمي بعين مكسورة، إذا ضَحِكَت بكيت تأثّرًا وإذا بكت بكيت حزنًا، كانت إذا قامت من مضجعها تشرب الماء أجري قبلها أجلبه لها، صرت أخشى عليها من أي شيء وكل شيء، كنت أبكي في كل حزن مهما كان تافهًا، أذكر أنّي مرة بكيت لأني لم أجد اللون الأسود من حافظة أعجبتني، لم أكن أبكي على الحافظة أو غيرها، كنت في كل مرة أذرف دموع وداع جيداء التي تتجدد في كل حزن، وكأنه اليوم الأوّل للرحيل.. كنت أذرف دموع فراق أبي التي منعتها من الخروج أمام رجال العائلة وقتها.. مضت أربعة أيام تقريبًا على انتصاف مارس، قررت أن أعود لحياتي الطبيعية، قابلت بهي الدين وصديقين لنا من كلية الهندسة، ثم ذهبنا إلى منزل بهي الدين.. كنا نلعب معظم الوقت..

www.idafabooks.com

في نهاية اليوم قمت مع وليد إلى مطبخ شقة بهي الدين نعد القهوة وظللت أبحث عن السكر طويلاً فلم أجده، حتّى مل وليد فأخبرته أن يخرج إليهم حتّى أنجز الأمر.. لا أتذكر ما حدث بالتفصيل في المطبخ ولا أذكر أكثر من ذلك، خرجت إليهم وظللنا نلعب طويلاً ثم رحلنا جميعًا..

في صباح اليوم التالي استيقـ...

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

مهلاً..

أنا قتلت بهي؟؟؟؟!!!!

أيعقل.. أن أكون أنا القاتل؟

أنا الصيدلي الوحيد الموجود بينهم، زين ووليد طلاب بكلية الهندسة، أنا فقط أستطيع تحضير الريسين منزليًا.. أنا فقط أعلم أنه سم قاتل.. ولمَ لا أقتله؟ فقد حقق كل أحلامي.. فاز بدلاً مني في بطولة كأس مصر للتنس، استطاع أن يحصل كل عام على تقدير امتياز وأنا فشلت أمامه في ذلك.. كيف لا أقتله وهو خصمي الوحيد في كل شيء؟ كيف لا أقتله وأتخلص منه ومن كل ما جرّ وراءه؟ أيعقل أن يكون فراق جيداء أثّر عليّ لهذا الحد؟! ربما أنا أصبت بالجنون قبل الحادث؟ ربما كان تلصصي على خطى أمي جنونًا؟ لقد جننت وقتلت إياد.. ربما حاولت الانتحار قبل ذهابي إلى المحكمة للإدلاء بشهادتي، كان الأمر متعمدًا فعلاً.. لكن أنا الفاعِل..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

الفصل العاشر

الآن اتصلت كل الخيوط.. ولم يبقَ سوى حبل المشنقة ينتظر القاتل.. هذه نهاية لطيفة لقصتي.. إنها النهاية الأنسب لشخص فقد كل من يحب وفقد شغفه وفقد نفسه.. إنها النهاية الأنسب لحياة بائسة مثل حياتي..

عزمت في قرارة نفسي أن أبقى في المنزل أودّعه وداعًا أخيرًا، كانت حالتي النفسية في هذه الفترة تسمح لي أن أسلّم نفسي وأستحق جزائي على قتل بهي الدين، فقط كنت أنظر لأمي وأتساءل ماذا ستفعل عند معرفتها بحقيقتي؟ ماذا ستفعل عندما تدرك أن في بيتها قاتل؟

www.idafabooks.com

كانت المرة الأولى لي التي أصلي فيها قيام ليل كامل، صليت وجلست على سجادة صلاتي أبكي، حتّى ارتوت الأرض من دموعي، كنت أشعر أن كل شيء حولي يبكي، حتّى الجدران كنت أسمع أنينها حزنًا على ما آل له الحال.. دعوت الله دعاء المضطر وأنا أحترق ويحترق قلبي، حتّى أنّي شعرت بالنار تحرق أوردتي وشراييني.. كنت بين يدي الله أسأله العون والغوث منه فقط.. حتّى نمت في مكاني..

استيقظت بعد الفجر بقليل صليته ونزلت إلى الشارع هائمًا، كانت السماء لا زالت مظلمة، دموعي كانت تترقرق في عينيّ.. أردت أن أصرخ، أردت أن أجرب إحساسًا جديدًا.

هل جربت أن تقف على قمة جبل في مقتبل الصباح تفتح ذراعيك بجوارك على مصراعيهما ورأسك عاليا تنظر للفضاء، تتنفس الصعداء بكل ما أوتيت من شهيق، تتقيّأ الزفير ذرفًا، تشعر بالقوة تسري في قبضة يدك حتى تظهر العروق منها، وقدماك كأنهما صخرتان تدبّان جذورهما في باطن الأرض، تصرخ بأعلى صوت ممكن، تكاد حبال صوتك تتقطع واحدًا تلو الآخر وتكاد تنفجر حنجرتك، تصارع روحك بداخلك ويندفع صدرك للأمام وكأنها تريد أن تُطلَق في هذا الفضاء الفسيح، هذا الإحساس الذي لن تجرّبه هو أفضل إحساس على الإطلاق بعد الطيران..

www.idafabooks.com

ذهبت إلى الكورنيش ووقفت أتأمل مشهد الشروق.. عند حد الأفق بين السماء والأرض، أرى فيه الماضي والحاضر معًا، آخر الأرض وبداية السماء، نهاية المادة وبداية الحرية، أردت أن أطير بجناح غير مغلوب على أمره، إنها المرة الأولى التي تمنيت أن يكون لي فيها جناحان، ربما يحملاني خلف هذا المدى، أعبر كل هذا وذاك وإن كان إلى المجهول، أخطو إلى ما وراء الأفق، أتحرر من هذه القيود الخانقة، ربما تدنو الأماني أو أستعيد شيئًا من ذاتي التي أهدرتها الأيام..

لو يعود الزمن لعدت اغير المستقبل ، لعدت اعيش اللحظات بقلب غير الذي عشت به ، عدت امحو الخوف من الطريق و أنثر على آثره من الأمن جبالا .. عدت اصارع سواد الليالي لا استسلم لكآبه الظلام و حلكته ، عدت اغير مسار الحياة و اختار كل ما سلبني التردد حق اختياره .. لعدت اتحسس الارائك و الكئوس و الأمكنة التي جمعتنا بالغائبين ليوم او حتى دقيقة ، لكنه لا يعود .. نحن مكبلون بأصفاد الزمن ، نسير طوعاً و كراهية بخطى ثابتة إلى حيث ... لا نعلم

هل هذا مكان مناسب للنهاية؟

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

عدت إلى المنزل، اتصلت بالمحامي الخاص بي وجدوّلنا مواعيد للمقابلة، وبالفعل قابلته في نفس اليوم وقصصت له كل شيء من البداية إلى النهاية، أخبرني أنه لا يمكن أن يصدر بخصوصي حكم إلّا وإن كان هناك ولو دليل واحد وشهود على أنّي مرتكب الجريمة..

تركت زمام الأمور للمحامي يستأنف القضية..

مرّت عدة أيام.. استيقظت من النوم على اتصال ملح من أستاذ أشرف المحامي الخاص بي..

"دكتور إياد..؟"

- "أستاذ أشرف.. أهلاً بك.."

"لدي خبر في غاية الأهمية"

- "أخبرني أنكم وجدتم دليل إدانتي"

"شيء من هذا القبيل، ولكن ليس تمامًا"

خفق قلبي خفقًا حتى كاد يقفز من صدري، إذًا ما ظننته كان صوابًا.. استجمعت قواي وأكملت المكالمة"

- "إذًا نتقابل.."

"الخامسة في مقهى الشاطبي"

www.idafabooks.com

- "سأنتظرك"

وبالفعل بحلول الساعة الخامسة قابلت أستاذ أشرف.. ودار الحوار..

- "بلغ التشويق محلّه يا أستاذ أشرف.. هلّا أخبرتني ماذا وجدتم"

"وجدنا دليلا.."

- "دليل ماذا؟"

"براءتك.."

- "برائتي؟! .. كيف؟! .. متى؟.. من القاتل إذًا؟.."

"القاتل شخص لم تتخيل ولن تتخيل أن يكون هو الجاني"

- "من القاتل وكيف عرفتم؟"

"بهي الدين.."

قمت من مكاني واثبًا صارخًا..

- "بهي الدييييييين!!!!! هو القاتل؟"

"اجلس واخفض صوتك، الناس ينظرون إلينا.."

www.idafabooks.com

فجلست محاولاً التمثيل أمام الناس أن الأمر طبيعي..

"نعم، بهي الدين.. قُتِلَ عن غير قصد.."

- "انتحر؟!!!

لا لقد كان قتلاً خطأً

- كيف عرفتم ذلك..؟؟؟"

"القضية أوشكت أن تنتهي يا إياد، منذ يومين فقط تغيّر مسار القضية بظهور أدلة جديدة، لقد أثبت الطب الشرعي أن بهي لم يُقتَل بل تعرض بشكل أو بآخر لمادة الريسين والتي بدورها أدت إلى وفاته، كان لبهي معمل صغير به حوض في غرفته، بعد التحريّات والتفتيش وُجِد فيه آثار وبقايا لبذور خروع، وبالطبع أنت تعرف أنها مادة خام للريسين الذي توفي به بهي الدين، كما أنه صيدلي فهو يعرف كيف يحضّره، وُجِدَت أيضًا أنابيب اختبار وأسيتون ومواد أخرى جميعها تستخدم لتحضير الريسين، كما وُجِدَ أرنب كامل الجثة متجمد في ثلاجته وبعد تحليل الطب الشرعي وُجد أن هذا الأرنب تم قتله بنفس السم، بهي الدين كان يحضر الريسين لتجربته على الأرنب ولكن من الواضح أن عند تمام جهوزية المادة حدث سوء استخدام بشكل من الأشكال أدى إلى تعرضه بشكل مباشر لها، أكّدت والدته في نهاية المحضر أن ابنها كان يخبرهم منذ

www.idafabooks.com

فترة عن نيّته في تجربة نتائج السموم على الحيوانات لإجرء بعض الأبحاث، رحمه الله.. مبارك عليك البراءة، أنت لم تكن متّهمًا حتى.. أما أمر الحادث الخاص بك فهو لم يكن مدبّرًا، ذهبت سيارتك للصيانة بعد ذلك وهي في التوكيل الآن، كَشف تفاصيل الإصلاح أقرّ أن السيارة لم يكن بها أي مشاكل لا في الفرامل ولا غيره.. ربما كان مجرد حادث عابر.. فأنت تعرف أن هناك الكثير لا يجيدون القيادة وأنت لا تقود وحدك في الشارع.. الآن لم يتبق سوى خطوات بسيطة لإغلاق ملف القضية، منهم أن تؤكد على كلام وليد وزين وتمضي على أقوالك، لكن هذا الأمر سيكون مجرد إجراء روتيني لإغلاق القضية فلا داعي للقلق.."

انتهى الحوار معه، عدت إلى المنزل متلهّفًا، دخلت من الباب احتضنت أمي بشدة وأنا أضحك، قلت لها صارخًا: "وا أماه باركي لابنك.. اليوم استعدت كامل ذاكرتي.. لقد عدت للحياة يا أمي.. أنا بريء.. بريء.. بريء.." ظللت أجري في المنزل وأصرخ "أنا بريء" حتّى ظنّتني مجنونًا.

مضت الأيام ثم عدت للدراسة، بدأت أحاول أن أتخطى الماضي، أن أعبر فوق ألمي وأتناسى ما حدث على مدار الفترات الماضية، كنت أتردد على طبيب المستشفى الذي بدأ معي رحلة علاج فقدان الذاكرة، حتى أتممت العلاج وأخبرته بتفاصيل القضية.. أغلقنا الأمر نهائيًا واستطعت أن أتجاوزه.. مر الوقت ومر

www.idafabooks.com

العام.. عدت أثبت ذاتي وأحققها، عاهدت نفسي ألّا أتورط في علاقات مرة أخرى مهما كانت جديّتها أو هزلها.. تقرّبت إلى الله بكل ما يمكن، لم أقطع صلاة ولا صيامًا، أكثرت من الصدقات وقيام الليل والدعاء والأذكار والاستغفار والمناسك، بدأت أتعلم العلم الشرعي وأقرأ في كتب الشريعة، عدت إلى التنس وإلى حياتي الطبيعية، اشتركت في نادي ألعاب قوى رياضية، عدت للدراسة بجدية، مرّ الفصل الدراسي الأول في عامي الخامس بالجامعة وحصلت على تقدير امتياز أخيرًا، تبقى فقط فصل دراسي وحيد على تخرّجي، في الحقيقة كنت من وقت لآخر ينتابني الوسواس في متابعة حساب جيداء، بالرغم من أننا لم نعد أصدقاء وأنها قليلة الظهور عليه لكنّي كنت أتلصص الأخبار عنها، كنت أعلم أن هذا قمة الهزل وأن ما أفعله شيء خطير، وأنها مخطوبة ولا يحق لي أن أفعل ذلك.. لكن قلبي كان يؤلمني على فقدها.. عاهدت نفسي مرارًا أن أكف عن هذا الأمر وكنت أكف شهورًا ثم أعود مرة أخرى إلى التلصص..

اقترب عامي الخامس والأخير على الانتهاء..

في إحدى ليالي أواخر مارس، دفعني فضول قاتل إلى فتح صفحتها..

www.idafabooks.com

وجدت هذا الخبر الذي كنت أخشاه.. دعوة عامة لأصدقائها لحضور عقد قرانها في نهاية يوليو المقبل..

بالرغم من أنه ثالث أيام الربيع.. إلّا أنها كانت أول مرة أشعر فيها ببرد الشتاء.. وألتمس وحشة الليل.. أول مرة يضيق صدري بها وبي..

حتى أني لم أعد أستطيع أن أخوض المزيد من المعارك.. عام ونصف.. سبعة عشر شهرًا.. خمسمائة وعشرة أيام.. اثنا عشر ألفًا ومئتان وأربعون ساعة.. سبعمائة ألف دقيقة منذ رحيلها.. كان فيهم يطاردني شبحها..

حتى الكتابة لم أعد أجد ما أكتبه.. حتى أنا لم أعد أنا..

هل أستسلم لحب هالة وأذهب إليها؟.. هل ما زالت هالة تحبني؟.. هل يمكن أن تكون هالة هي شريكة حياتي القادمة مثلاً؟!

غفوت في هذا اليوم وأنا مُتألِّم لخبر عقد قرانها.. لقد أوشك الأمر أن يكون واقعًا.. بكل المقاييس فإن حاتم هذا خطيبها يستحقها أكثر منِّي..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

مضى العام وانتهى وحصلت على امتياز ولكن لم يتم تعييني في الكلية، كان لهذا العام العظيم من الأثر، هذا الذي توفي فيه والدي ورحلت فيه جيداء والذي حصلت فيه على تقدير متدنٍ، ولكن تقديري العام كان امتياز.. تخرّجت وكان حفلاً جميلاً ممتلئًا بالبهجة، كنت أرى في عيون أمي الفخر يقفز إلى قلبي، قدّمت طلب تعيين في إحدى الشركات الكبرى لتصنيع الأدوية وقُبِلتُ فيها بعد فترة وجيزة، وكان هذا شيئًا غريبًا لم أكن أتوقعه، لكن ربما هي صدى صبري طوال الأعوام الماضية..

صرنا في شهر سبتمبر الآن ومضى عدة أشهر على زواج جيداء، لم أنسها مهما حاولت التناسي، مضت شهور على آخر مرة فتحت فيها حسابها وكان ذلك قبل عقد قرانها بكثير جدًا..

فتحت حسابها لكي أشاهد أي شيء من صور الزفاف، بدافع الفضول وبكل الدوافع الأخرى في نفسي لأن أرى منها طرفًا يطفئ شوقي لها، وكان آخر منشور لها هي صورة نافذة طائرة بتاريخ منتصف يوليو ولكن صورتها الشخصية كانت ورقة سوداء فقط.. فتحت التعليقات لأقرأ ماذا كتب أصدقاؤها وفوجئت برسائل عزاء ومواساة وتعليقات من نوع آخر، أن الله سيعوضها خيرًا منه وأنه لو كان يستحقها لبقي.. لم أفهم أي شيء من التعليقات.. ظللت أبحث في كل الصور وصفحات أصدقائها وأبحث عن حساب خطيبها أو زوجها هذا وأتنقّل بين الصفحات.. حتّى اتضّح الأمر..

www.idafabooks.com

لم يتحمل والد جيداء المرض طويلاً.. إلى أن اصطفاه الله قبل عقد قران جيداء بفترة.. لم أجد حساب خطيبها على صفحتها، فهمت أيضًا أنها انفصلت عنه بعد وفاة والدها مباشرة ولا أعلم من السبب.. وأنها عادت مع والدتها للاستقرار في مصر منذ عدّة أشهر..

❊ ❊ ❊

www.idafabooks.com

عزمت النية على أن لا أضيع الفرصة هذه المرة.. لففت على أصدقائها واحدة واحدة حتى وصلت لعنوانها.. اشتريت باقة زهور تمامًا كالتي أهدتني إيّاها في المستشفى، وذهبت لعنوانها وقلبي يرتجف، لم أكن أتخيل كيف سيكون هذا اللقاء، ذهبت إليها بدون سابق موعد ولا إنذار، سمعت صوت اضطراب في منزلهم بعد طرقي للباب ثم سمعتها تقول لوالدتها "أمي ارتدي حجابك حتّى افتح الباب له"

فتحت لي الباب.. كانت لحظة المواجهة من أصعب اللحظات التي يمكن أن يتخيلها أي امرئ أيًا كان، ظللت واقفًا مثل الصنم ممسكًا باقة الزهور في يدي، لا أتحرك ولا تتحرك ولا حتّى نتنفّس، كانت لحظة تنفجر بالمشاعر والألم، لحظة تبعثرت فيها الحروف وفقد الكلام معناه، لم أستطع أن أستجمع ولا كلمة واحدة ولا حرف واحد في حضرتها..

أومأت لي برأسها وهي تنظر إلى عيني: تفضل دكتور إياد بالدخول، لا يمكننا التحدث على الباب..

دخلت وساقاي ترتعدان، أشعر بالبرد يسري في دمي، أنظر للمنزل يمينًا ويسارًا وأتلفّت ببطء، شَّل لساني ولم أستطع التحدث إطلاقًا، نظرت في عينيها الزرقاوين ثم دمعت عيناي دمًا بدل الدموع.. آه يا جيداء لو تعلمين ماذا دار بروحي في هذا اللقاء آه..

www.idafabooks.com

خرجَت والدتها من غرفة بالداخل ألقت السلام وجلست بجوار ابنتها بدون أي كلام.. كانت تنظر لي لا مبتسمة ولا عابسة..

التفتت إليّ جيداء، وسألتني..

"لماذا عدت؟.."

قلت لها "لأسترد نفسي"

قالت "ولكنك من أضاعها"

قمت من مكاني وجلست على ركبتي ودموعي في عيني.. اقتربت منها قليلاً ونظرت إلى عينيها بعينيّ الدامعتين قائلاً بنبرة متقطّعة هادئة باكية:

"أتيت في الحاضر أرمم الماضي لأجل المستقبل.. فهل..؟"

فدمعت عيناها وقامت من مكانها واقفة واضعة يدًا فوق الأخرى وتنظر بعيدًا عني، حتى غمرها البكاء وجلست بسرعة غطّت وجهها بيديها، ولكنّي كنت أسمع صوت بكائها.. جلستُ بجوارها بعينيّ الدامعتين الفاضحتين.. وسألتها برفق..

"دعيني أسألك أنا، لماذا لم..؟"

ردّت "لماذا لم أتزوجه؟"

www.idafabooks.com

فرددت أنا "نعم.. لماذا؟.."

فقالت.. "لأني لم أجدك فيه، وقد رحل السند فمن يبقى؟.."

فقلت لها في عجلة "ولن تجديني في غيره ولن أجدك في غيرك، اعفي واصفحي واتركينا نعيش، لا تجعلي قرارًا يؤخذ في لحظة يهدم سنوات المحبة بيننا.. جيداء.. أنا أريدك ولا أريد غيرك.. وقد عدت اليوم أحارب كل الظروف، هذه المرة مهما تكلّف الأمر سأدفع فيه، وإن تكلّف مِني العمر فداءً لثوانٍ أقضيها معك برضاك.. جيداء.. إن الإنسان إذا فقد الروح فإنه فقد المعنى، فقد المغزى والغيب وفوقهم الواقع.. آمنت الآن أننا لسنا مجرد تفاعلات كيميائية ووصلات عصبية، وإن كانوا هُم الشعور.. فما الذي أوقع فينا طاقة تستحث هذه الوسائل على عملها أصلاً؟

إن الحب يا جيداء هو أسمى المعاني معنىً.. هو أصل كل الطاقات والأفعال.. المحبة هي المشاعر المفسرة وغير المفسرة التي تقع على منظر بديع وشجر أخضر وماء أزرق كتلك العيون وصوت عصفور يغرد.. مشاعر طيبة تترك فيك أثرًا.. أن تدري كم تحتاج أن ترى وجه والدتك كل صباح وصوتها كل مساء.. أن تحب من الصباح نورًا ومن الليل هدوءًا فترى الجمال في كل ما يحمل قبحًا وجمالاً.. لقد عرفت الجمال منذ أحببتك ورأيته في أبشع ما حولي.

www.idafabooks.com

إن الحب قوة لا تعرف معنى الحدود.. وهي الفكرة التي ترفض الاستسلام وفقط تخضع للخالق.. فتستمد بإذنه من المدد والعون ما قد يغير الزمن والمكان والمادة..

(من الحب ما قتل ومن الحب ما صنع المعجزات!)

عبارة موجزة مانعة جامعة.. لكل ما سبق ذكره..

إن الحب فينا يا جيداء.. داء ودواء.. لا أعراضه محدودة ولا نتائجه يمكن تنبؤها.

إن تلك القرارات التي نأخذها مرة واحدة هي قرارات أكبر من يقال عنها مصيرية، إمّا أن تعيش طوال حياتك تتعذب في قرار أخذته في ثوانٍ أو تكون شجاعًا وتختار ما يشفي مطالب روحك من البداية.. إن المحبة هي أسمى صفات الكائنات الحية بلا منازع.. ولكننا وضعناها في صور خاطئة.. لوثنا صورة أطهر وأعمق معانينا.. تركنا الشهوات الفكرية تسيطر على الصورة.. تركنا التشتت والتخبط واتخذنا من الآراء مذاهبًا.. فقيَّدنا وقُيّدنا..

ختامًا.. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما أرى للمتحابين غير الزواج"..

فاعفي واصفحي..

www.idafabooks.com

قلت هذا الكلام وأنا أبكي، من قال إنه لا شيء يستحق البكاء؟ وإن كان لا شيء فعلاً يستحقه فلماذا خُلِق؟ لقد خلق البكاء لمثل هذه اللحظات تمامًا، لحظات الانكسار والذل والفقد والهوان، اللحظات التي يعجز فيها الكلام فتأتي الدموع جارية عندما يُشَلُّ اللسان.

صمتت جيداء طويلاً ثم ردّت بابتسامة هادئة.. "أما العفو فقد عفونا وأما الصفح فقد صفحنا وأما الحب.."

فقلت لها "أما الحب فقد بذلته فيكِ فماذا أنت فاعلة؟"

فقالت "أما الحب فلك مني منه ما يؤمنك حتى الممات.."

انتفضت واقفًا واستحال الدمع في عينيّ إلى سعادة.. وقلت لوالدتها "وا أماه أعطني الأمان واختميه بالفاتحة"

فرفعت يداها وأمسكت بيد جيداء وقالت "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العلمين.."

لا داعي لذكر المزيد من التفاصيل، لم نُقم أنا وجيداء حفل خِطبة، كتبنا الكتاب مباشرةً ثم الزفاف..

فاجأت أمي أنّي دفعت مقدم الشقة التي كانت فوقها تمامًا حتى لا تعيش وحيدة بقية عمرها، وبالفعل زُفَّت إليَّ جيداء فيها..

www.idafabooks.com

كان يوم الزفاف صباحًا خلّابًا، لم أرَ الشمس ساطعة في حياتي مثل هذا اليوم، وكأن الأرض والسماء والناس أجمعين يباركون ويهنئوننا، أمضيت الصباح بأكمله أترقّب اللحظة التي سأرى فيها مَلِكَتي الجميلة في ثوبها الأبيَّض، لم تكن جيداء عروسًا بل كانت جنة على الأرض.. على الأقل في نظري..

أحضر البعض طاولات ومقاعد وغطوها بالمفارش وجلست على طرفها وعمي وخالها والمأذون بيننا، وبدأ المأذون بذكر الله وإلقاء التحيّة على الحضور، واستطرد من واجبات الزوج وحقوق الزوجة.. ثم قال لخالها: ردد ورائي..

"إني استخرت الله العظيم،

على أن أزوجك موكلتي

جيداء محمد كامل الملواني البكر

الرشيد على كتاب الله وسنة رسول الله

وعلى الصداق المسمى بيننا

عاجله وآجله

والحضور شهود على ذلك والله خير الشاهدين.."

www.idafabooks.com

ثم أتبَع الحديث إليَّ

"وإنى استخرت الله العظيم

وقبلت زواج موكلتك الآنسه جيداء الملواني

البكر الرشيد على كتاب الله وسنة رسول الله

وعلى الصداق المسمى بيننا

عاجله وآجله

والحضور شهود على ذلك والله خير الشاهدين"

صفق الحضور حتّى كلَّت الأيادي وتعالت أصوات الزغاريد وانهال الناس علينا بالمباركات، لم أكن أعي في هذه اللحظة سوى أن جيداء أصبحت زوجتي بعد السنوات العجاف الماضية، طرت إليها ولم أجد نفسي إلّا أضمها إلى صدري وأطوِّقها شبرًا شبرًا وعيناي تملأهما الدموع، كانت ضمّتي لها هي أكثر المضايق اتّساعًا، تمنيت أن يتوقف الزمن عند هذه اللحظة طويلاً.. لقد انتهى اليوم كل ما ضاق صدري به.. فاللهمَّ إنّي استودعتك ما تبقى من عمري.. وسأثق قطعًا بعدلك وحكمتك التي أخرجتني من كل ما كنت فيه إلى ما صرت فيه..

www.idafabooks.com

شعرت في ذلك اليوم أنس تلك الأرواح التي فارقتنا طوال الأحداث، وكأنّهم ألقوا علينا السلام والتحية، طغى الدفء فوق الأمكنة، وأدركت أنّي كنت في الماضي شخصًا ماديًا جدًا، ومشكلة الأشخاص الماديين أنهم يظنون ما خلف الواقِع فَناء، لا يعلمون أننا نقابل أشخاصًا رحلوا منذ زمن في كل ليلة، نتسامر معهم حتى المشرق، لا يعلمون أننا نصل من حجبتهم عنّا الحدود ونغفوا في أحضان الغائبين، يؤمنون طوعًا أو كراهية بوجود عوالم ما خلف الحجاب، وينكرون أننا نستطيع وصلهم، لا والله، إننا نستطيع إليهم سبيلاً، لم يرحل عنّا أحد إلّا وترك فينا ما ترك، وكأنهم يتركون رائحتهم بين طيّات الأقمشة، ويتركون أصواتهم في كل صوت، يتركون أرواحهم في أرواحنا، إن للغائبين فينا العظيم من الأثر، وإن لهم أنسًا يملأ أرجاء كل مكان شهد على خطا أقدامهم يومًا، كم كذب من قال في الرحيل إنه قطيعة، أو قال إن بين القلوب حدودًا، فإن كان في عالمكم بين الأجساد بلاد، ففي عالمي تتصل الأرواح بدون قيد مشروط.. عادوا يقولون لنا "لم نودّعكم يومًا"

تمت

www.idafabooks.com

للتواصل مع الكاتبة

facebook.com/sohakassem.eg

www.idafabooks.com

ج ٠ م ٠ ع

(+٢) ٠١٠٠٦٤٢٢٠٦٦

(+٢) ٠٣/ ٥٩٣٠٥٧٦

الحسناء للنشر والتوزيع

www.Hasnaabookstore.com

www.idafabooks.com